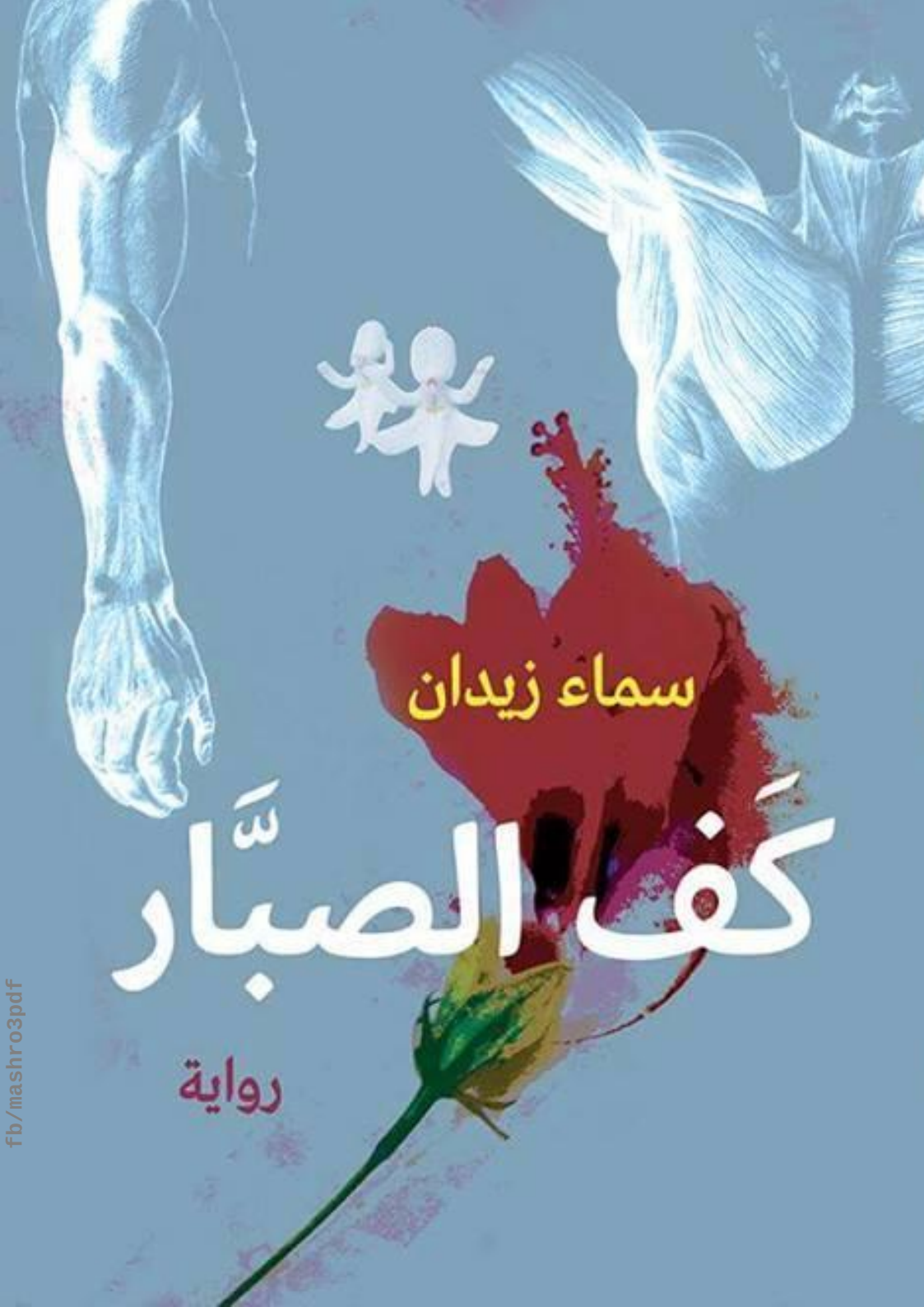

fb/mashro3pdf

كف الصبَّار

رواية

سما زيدان

الطبعة الأولى 2016.

(c) دار ميريت

6 (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.org

merit56@hotmail.com

الغلاف:

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: **2016/4227**

الترقيم الدولي: **978-977-351-785-4**

fb/mashro3pdf

سماء زيدان

كَف الصبَّار

دار ميريت
القاهرة 2016

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إهْداء

إلى أبى..
بعنادٍ ورثتُه عنك سأكون كما كنتَ تتمنى...

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إذا أصْبَحَ الصُّمُودُ سُبَّةً فانْتَظِرُوا القِيَامَةَ!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(1)

قرر عبد الحميد أن يستأجر شقة فى أول خط باص العمل، الباص رقم ١٠٢، الباص الذى يُقل راوية، لم يكن عبد الحميد يستطيع أن يسأل أحدا فى البنك عنها.. من هى؟ أين تسكن؟ من أى محطة للباص تركب؟ كل ما كان يعرفه هو رقم الباص وحتى السائق ربما يتغير...

رافق عبد الحميد السمسار لساعة، يسير خلفه فى الطريق يصعد إذا صعد ويهبط إذا هبط.. كان الرجل متعجلا، ضيق الخلق، عود شديد فى جلبابه كالوتد، بجلبابه الريفى وحذائه الجلدى لا يبدو قاهريا، لكنه يعرف الطريق والمسالك، لم يفكر كثيرا قبل أن ينطلق بعبد الحميد ليريه عتبته الجديدة.

بالقرب من مصر القديمة حى ضيق لا مكان فيه لقدم، على جنبات الطريق وخلف اللوحات الإعلانية الكبيرة التى تعلن عن منتج ما، تجد بعض الأكشاك والمقاهى الصغيرة يتوقف عندها سائقو الشاحنات فى رحلاتهم الطويلة، تخفى مدخلا وراءه هضبة صخرية مرتفعة، نزح إليها وافدون أخلاط باحثون عن فرصة عمل...

عشوائية منسية.. عشش وبيوت متهالكة.. حوارٍ ضيقة.. مياه الصرف الصحى تغرق الطرقات.. أكوام القمامة تملأ جنبات المكان.. مشاجرات دائمة أمام أفران الخبز.. ظلام دامس لفترات طويلة... مياه مقطوعة..

fb/mashro3pdf

مسالك العزبة نزح إليها الفارون ببطونهم من سأم الريف اليومى والصباحات الرتيبة الخاوية، أمن الريف يثير الضجر ولقمة العيش تجتذب برائحتها العابرون.
نفوس تثير الشفقة بعضها شرد وراء أوهام الكسب السريع يراوغها وتراوغه، وبعضها سكن وتوطن لما لم يجد فارقا، وجد فى كل الأرض اغترابا.
عزبة خير الله... الشر يسكن هنا. مثلث عشوائى يقطنه النازحون من الريف والصعيد، يديره البلطجية وتقسم فيه الأراضى بالقوة ووضع اليد، لا تطاله يد الدولة ولا القانون... حتى عربات حمل القمامة لا تستطيع الدخول لضيق الشوارع وإشغال الممرات بالخشب والرخام أمام الورش...
المحور الرئيسى داخل العزبة هو شارع النجاح، يمر بطول العزبة من الشرق إلى الغرب، ويوجد فيه السوق والمدرسة الابتدائية الوحيدة. الحرفة الأهم والأكثر انتشارا بالعزبة هى صناعة الخشب وخاصة خشب الكونتر الذى يشتهر فى الأسواق باسم "كونتر العزبة".

يسير عبد الحميد إلى جانب الرجل فى الشوارع الضيقة المنحدرة، بسبب طبيعتها الجبلية يتخلل طرقها عشرات الورش المصنعة لكاونترات الخشب، الصناعة التى وجد فيها العديد من الأهالى مكسبا رائجا، بسبب الإقبال على شراء الألواح لرخص ثمنها.

fb/mashro3pdf

شقة من غرفة واحدة لا تدخلها الشمس ولا الهواء، تقع فى عمارة متهالكة من طابقين هى ما استطاع السمسار أن يؤمنه لعبد الحميد..
طالبه السمسار بإكراميته مقدما قال:
أنت فى قلب كل شىء، أنت فى قلب القاهرة، تفصلك دقائق عن أى منطقة تريد أن تخرج إليها، ويمكنك بسهولة رؤية القلعة والأهرامات من فوق أسطح مبانى العزبة العالية، أو حتى رؤية النيل من حوافها الغربية المرتفعة.
صوت مَغْلق وورشة الخشب التى تحتل الدور الأرضى، لا يهدأ ليلا ولا نهارا، العمال صبيان الورشة فتيان يتناوبون ورديات العمل، ينامون فى الورشة أو فى بيوت الصاج وحولها، معظمهم أتى من الريف صغيرا أو من الصعيد، يقضى أشهره الطويلة مغتربا ويعود لأهله أسبوعا أو أسبوعين كل عام ليجلس بينهم بلا عمل وينفق ما ادخره.
نفايات الخشب ونشارته المبللة تملأ مدخل البيت، تشكل كومة متصلبة أسفل السلم، أصوات العرَس والفئران التى تسكنها يمكن سماعها صباحا فى هدأة أصوات البشر.
عشرات القطع من الأخشاب التالفة متناثرة فوق أرضية الورشة، تلقى وسط تلال القمامة والنيران التى تشتعل فى أى لحظة..
رائحة الغراء والخشب الطازج تملأ الأنوف، وفى الليل يسكن البعض إلى جراج السيارات خلف الورشة، يدخنون الحشيش

fb/mashro3pdf

أو يستنشقون غراء الخشب، كلٌّ بحسب يوميته، بعد يوم عمل طويل يتسامر البعض ويتصامت آخرون..
فى نهاية كل وردية عمل، يجتمع صبيان الورشة أسفل نافذة عبد الحميد المغلقة، يأكلون سويا أكياس الكشرى والخبز الجاف المبلل بالشاى المسكر وقطع البطاطا المشوية فوق بقايا الخشب المحترق، يتناوشون بقايا أطنان الفاكهة والطماطم المعطنة التى تلقى بصناديقها خلف الجراج، يلتقطون منها الديدان ثم يمسحونها فى ملابسهم الملوثة بالشحم والزيت، تبقى بعض الرائحة لا تصل أنوفهم التى امتلأت وتضاربت عليها الروائح وتعطلت عن الشم، ينامون فى حجرات ضيقة خلف الورشة، متكدسين بعضهم فوق بعض.

طوال أيام عمله يوقظه فى الصباح صخب الأطفال الجائعين وصياح الديكة وأصوات صبيان الورش والآلات، وفى الليالى تدور الرءوس وتغيب الأحداق فى العيون، يتسابُّ البعض ويتضارب آخرون حتى تسيل منهم الدماء.
أصوت إطلاق النار يسمعها كل ليلة لا يعلم مصدرها ومن أصابت، الرصاص يُصمت الجميع، ثم يأتى صوت المعلم من الدور العلوى فوق غرفة عبد الحميد تماما، حيث يبيت كل ليلة لمراقبة الورشة وتسليم الطلبيات فى الصباح، يأتى صوته كصافرة النهاية، يبتر صراع الذكور الذى يبدأ ويتنهى كل ليلة ولا أحد يعلم سببا له... من بدأه! ومن فاز! ومن شُوهت خلقته! ومن سيصبح الريس بينهم وله المهابة غدا!

fb/mashro3pdf

هنا قوانين الطاعة غير معلنة، تطيح برقاب وتذل أعناقا، ولقمة العيش لا تعرف كرامة ولا تحفظ هيبة لمحتاج لا يملك قوة يدفع بها عن نفسه الأذى.

كان على عبد الحميد أن يدفع شهريا لصاحب الورشة عشرة أضعاف إيجار شقته القديمة، شقة الزمالك التى يقطنها وحيدا منذ ماتت أمه، والتى رفض تركها لصاحب العقار حين عرض عليه مبلغا من عدة أصفار، كان عبد الحميد لا يدرى فيم سينفقه، الشقة هى كل ما بقى له من أمه، والمال لن يزيد عليه شيئا، هكذا قال لصاحب العقار الذى بدا له من إلحاح صوته أنه لن ييأس .
غرفته الجديدة فى الحى المكتظ نصف فارغة إلا من سرير مجمع من ألواح خشب الورشة، فوقه فرشة أسفنجية أغرقها الزيت والشحم والعرق، وبجوار الباب دولاب خشبى قائم على ثلاث لا يغلق بابه، ومطبخ عار من بلاط أسمنتى متكسر، الأرض غير مستوية، الماء يبلل الأركان، الزوايا مخضرة بطحالب جافة، النوافذ مغلقة بألواح خشبية مرقعة، مجمعة من بقايا صناديق نقل البضائع، والباب هش لا يحجب الهواء ولا الفئران.
يقضى ليالى الأسبوع الخمس فى هذه الغرفة، وفى نهاية الأسبوع يعود لأحضان بيته وشقته فى الزمالك، يعود ليجد وردة قد نظفت وغسلت وطهت وعطرت له نفسها وبيته.

fb/mashro3pdf

فى يومه الأول ركب عبد الحميد من أول الخط، لم يكن يعرف محل سكن موظفى البنك، من يركب أولا، من ينتظر ويطول انتظاره ومن ينتظره الباص لعلاقته بالسائق أو بهيمنته على المجموع!
فى الصباح يتأخر البعض والبعض يأتى لنقطة التجمع مبكرا، إن تأخر أحدهم دقيقة أو دقيقتين ربما يكون ثمن ذلك عدم اللحاق بالباص وربما اضطر للبحث عن سيارة أجرة أو مواصلة تقله لعمله، وعادة يصل متأخرا ويخصم له ساعة وربما نصف يوم.

البعض ينتظر بلا ثمن.. يفعل ذلك تطوعا، والبعض يصمت وينساق لصمت القطيع، والبعض يخاف إن رفض الانتظار أن يدفع الثمن، للعلاقات قوانينها، وللباص قوانينه التى تسرى شفاهة، لا أحد يذكرها لأحد ولا أحد يلقنها للآخرين، فقط تراقب وتخطئ لتتعلم، ربما خطأ واحد يكلفك الكثير وربما سلوك الجماعة ينجيك، عادة القطيع يعرف الصواب يختار المعارك التى لا خسائر فيها، يصمت أمام الأعظم.
الجماعة تخذل أيضا، الركون للمجموع الخاضع يحفظ للفرد كبرياء زائفا والتضحية السهلة عادة تكون بالمتمرد الشارد.

كان أحمد أكثر شباب البنك وسامة وأناقة، يصل لمحطته فى غالب الأيام بعد موعده بعشر دقائق، الجميع ينتظره فى إذعان، ما إن يصل بعد انتظار تستقبله راوية بابتسامة أمٍّ حنون. يتقافز

fb/mashro3pdf

بخطواته النشطة، يقف فوق سلم الباص أولا ويتطلع بعينيه الحادتين نحو الطريق ثم إلى عمق الباص نحو الكنبة الخلفية الفارغة ليحتلها وحده هو وحقيبته ورائحته الذكورية الفجة.
عطره الرجالى الحاد وعطر حلاقته يقطران من شعره المبلل، تتسابق أيدى فتيات الصف الأول إليه بالمناديل الورقية والماء البارد، وترتفع إليه أكف الشبان بالتحية، يجلس أمام راوية دائما، تتعلق عيناها بظهره وكتفيه العريضين، تمسك كتابا بين يديها لا تكاد تمس عيناها أوراقه ما بقى لهم من الطريق.

بدت ملامح الدهشة فى وجه راوية وهى ترى عبد الحميد يجلس فى مؤخرة الباص معهم، يحتل مقعدين وتنثنى ركبتيه إلى صدره.
عم محمد السائق المسن يريد أن ينهى عمله ويصل لجراجه فى البنك لينتظر موعد الانصراف، يخشى بدلة عبد الحميد الرسمية التى تحمل شارة الأمن الذهبية. ينظر لعبد الحميد فى صمت ويطيعه، يوما بعد يوم أصبح عبد الحميد يؤدب كل من يتجاهله من موظفى البنك بتركه خلف الباص...

يعيد عبد الحميد ويكرر بصوته الأجش:
- الباص له موعد، وسأتحرك بدون من يتأخر، يجب على الجميع الالتزام والانضباط واحترام مواعيد البنك.
ولأنه أول من يركب كل صباح، فى الجراج يلتقى بعم محمد أولا، أصبح يجلس إلى جواره فى المقعد الكبير، يمازحه بنكاته التى لا طعم لها كالخبز البائت.

fb/mashro3pdf

مرات يلكز عم محمد السائق كى يسرع بترك محطة الالتقاء، ومرة يؤخره لدقائق عن موعده فيظن الموظف أنه لم يلحق بالباص ويذهب بسيارة أجرة خاصة، وإن أراد أن يجامل صاحبا يجامله بتأخير تحرك الباص وتعطيله لينتظر رفيقا ما بعينه.
عم محمد لم يكن يخافه لكنه يطيعه وكأنه هو رب عمله، كانت راوية تراقب عبد الحميد وتغير شخصيته يوما بعد يوم، وينمو خوفها منه رغم ما تشعر به من شفقة تجاهه وهى تراه يختلس النظر إليها ويتعرق، وربما ينسى فمه مفتوحا وهو شارد ينظر إليها.

كان عالم عبد الحميد يتزعزع ويسرى الماء أسفله وهو لا يدرى، كانت وحدته سُترة عظيمة له لم يعرف قدرها، وقوته الظاهرة فى بدنه تكمل صورته.
نزع نفسه من أمنه وستاره الهش سعيا وراء راوية، كان فى الأعماق أخف من ذبابة كل ما تقدر عليه هو أن تلتصق بخصمها لتسلبه ما لا يقدر على استرداده منها.
أنت بعيدة يا راوية.. بعيدة ولكنك بعيدة كالقمر.. كل من ينظر إليك يظن أنك له وحده.. لكن القمر عادل يا راوية وصادق ينظر للجميع نظرة واحدة وأنتِ لست كذلك..
ماذا وهبك أحمد لتلتفتى إليه كل هذا الالتفات!

أراقبه بينما تطعمينه عينيك، ينظر من النافذة فى ضجر، يضحك حتى يحمر وجهه، المحب لا يضحك يا راوية!

fb/mashro3pdf

المحب يملأ قلبه الشجن، المحب لا يعرف الفرح، خائف دائما..
لم يحبك يا راوية.. ربما أنت أكثر منى...
أنت الكثير يا راوية.. أنت الجميلة وأنا الوحش.. لمَ تمنحينى تعويذتك السحرية لأعود أميرا؟
كانت أمى تقول أننى أمير وسترانى فقط أميرتى، ربما أمى كانت تهذى فى مرضها.
... أنا لا أستحق "صباح الخير يا عُبَد" التى تنطقينها صباحا فأعيش بها يومى كاملا أنتظر الصباح التالى لأسمعها منك ثانية، لا أستحق تلك اللمسة التى ألتقطها من أصابعك عندما أمسك قلم دفتر الإمضاء بعدك.
لا أستحق سوى مقعدى الكبير البعيد بجوار بوابة الدخول.

طوال أشهر مضت كان عبد الحميد يتمنى ويحلم لو يركب الباص مع موظفى البنك، الباص رقم ١٠٢، الباص الذى يقل راوية، الباص الذى يحوى كل آماله، ربما إن أصبح بينهم ومعهم تمنحه الأقدار دقائق مع راوية، إلى جوارها، حولها، يتنفس زفيرها، ربما تمنحه التفاتة أو يبقى مع نكات الشباب يضحك بينهم، ربما يقبلونه يضحكون لما يقول.
يريد أن يقول شيئا ما يضحكهم، ربما لو يشترى كتابا يحوى نكاتا أو قفشات أو حتى غرائب ربما يلتفتون له، صحيح هو أكبرهم عمرا وأضخمهم حجما، لكنه ليس أثقلهم ظلا، أحمد ثقيل الظل يحبونه، أحمد رائحة عرقه كريهة لا يستحم، أحمد تنظر إليه راوية وتجلس إلى جواره أو خلفه أو حوله، يمشط

fb/mashro3pdf

شعره للخلف، ويحتفظ بحقيبته إلى جوارها، حقيبته ترقد فوق ركبتى راوية وبين ذراعيها، حقيبته زرقاء...
أى نوع من الرجال يمسك حقيبة زرقاء!!
ظل عبد الحميد ليلا طويلا ساهرا يفكر: ماذا لو...!
وماذا لو أحبتنى راوية.. وماذا لو أتزوجها.. وماذا لو عمَرت بيتى.. وماذا لو جمعتنى بها وسادة واحدة.. وماذا لو...!

يقترب عبد الحميد من موظفى البنك، يتهامسون وتتناثر نكاتهم، تقترب من رأسه وتلتصق بأذنيه، تنتصب أذنيه وتتسع فى محاولة لالتقاط المزيد، يتسامرون وراوية بينهم بحذائها الصغير اللامع ووسطها الدقيق المستدير، ماذا تقولين يا راوية! تنسكب الأحرف من فمك فى همس، لا أستطيع قراءة شفاهك، لا يهم، مراقبتك تكفى، كعصفور صغير بعيد يقف وحيدا ظهره عارٍ ينقر حبة التوت، أنت حبة التوت يا راوية... أنت جنة العصفور.
كنت حائرا يحترق قلبى، يفيض بى حب راوية ولا أجد لنفسى مخرجا، ربما إن صارحتها ترضى بى، لكن أين أنا منك يا راوية؟!
أسير خلفها، أتلصص عليها وهى تخرج من بيتها فى أيام إجازتها..
أين تذهب؟ من تقابل ؟ أين عائلتها؟
تلصص عبد الحميد على حياة راوية، ذهب خلفها وسأل عنها باعة الطريق وصبيان الحى، كانت تعيش مع أمها فى حى متوسط مكتظ، تقطن شقة فى الدور الأرضى من غرفة واحدة،

fb/mashro3pdf

منذ توفى الأب وهى تعمل لتساعد أمها فى المعيشة ولتكمل دراستها، أتى عملها فى البنك بواسطة من أحد عملاء البنك المعروفين، كان يرعاها منذ طفولتها، كانت صديقة لابنته ما جعلها ربيبته، تقضى الأسابيع فى بيتهم، وتسافر معهم، تشارك ابنته ملابسها وعائلتها، كانت ابنته وحيدة مدللة تحتاج رفيقة وأنيسة ووجدت سلواها فى راوية.

أقف ليلا أسفل بيتها أنظر للنافذة، الحب يأكل قلبى، يجعلنى أحلم وأنا لم أعد أحلم منذ وقت بعيد، ترى هل تشعرين بى يا راوية؟!
أدعو الله أن يمنحها لى، لم أدعُك من قبل يا إلهى سوى مرة واحدة، دعوتك أن ترد إلىّ أمى بعد أن ماتت، ولم تستجب ولم تُعد لى أمى، تذكرت.. دعوتُك فى طفولتى أن تجعل أمى تمنحنى ساعة يد، كان لأبى ساعة جيب ذهبية تخفيها أمى فى دولابها، الان أصبحت ملكى، لم تشبع حلمى القديم، لا تزال فى دولاب أمى لم أعد أرغب فى أن تخنق معصمى ساعة، تأخرت فى إجابة طلبى، ما قيمة الساعة فى يدى اليوم وقد تركت أصحاب الطريق، لمن سأعرضها؟ ومن سأبهره بها ليصادقنى؟ ومن يهمه اليوم أن أصل قبل موعدى؟
امنحنى راوية يا الله، عوضا عن كل ما سبق، سخرها لى وازرع فى قلبها حبى، أعدك يا رب أننى سأحافظ عليها، أحتاج عونك يا ربى، راوية هى كل ما أتمنى، كيف أقودها إلىّ؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(2)

يستيقظ عبد الحميد قبل موعده بساعة، هكذا تعود، عودته وحدته لسنوات أن أحدا لن يعتنى به، وأن النوم العميق قد يضيّع عليه موعد المدرسة، أو موعد امتحان، أو موعد ذهابه إلى العمل...

أتى عمل عبد الحميد فى البنك كمنحة من السماء، وعوضا من القدر عن جسده الكبير، عمل موظف أمن بأحد البنوك ذات الخزانات الحديدية الضخمة، بعدما تعثر فى دراسته لسنوات بعد فقده أمه.

كان يعيش فى بيته وحيدا تتناوب خالاته أسبوعيا على زيارته وإعداد الطعام له، لكن واحدة منهن لم تحتمله فى بيتها أكثر من يومين، لم يكن فقط ضخم الجسد ثقيلا، ولكن بنيانه كان يتسبب له فى ورطات مربكة، ينكسر السرير فى بيت الخالات وهو يتقلب ليلا، وتنخلع يد الدولاب، تهبط مراتب النوم ويبقى البول فى رائحتها لا يجف، يفتح حنفية الحوض فتنكسر، ويغلق باب الغرفة فينشق، ضاقت به صدور الخالات قبل صدور أزواجهن وأولادهن.

بقى عبد الحميد وحيدا فى معظم أيامه وإجازاته الدراسية والأعياد، كانت الخالة نعمات أقربهن إلى قلبه، وأكثرهن ودا له، كل صباح يمر عليها قبل المدرسة يأخذ فطوره أقراص الطعمية بالبيض البلدى أو رغيف البلح الطايب فى موسمه، تنزع عنه النواة والقشور، وترصه له فى رغيف ساخن، وربما أكرمته أكثر وصنعت له منه عجوة بالبيض والسمن البلدى فى الشتاء.

fb/mashro3pdf

كان أولادها أبناء خالته يضيقون به، صغيرا فى العيد يريد أن يلعب فتتمزق الكرة من ركلاته الحمقاء، ويتأذى الصغار من حركات يديه الضخمة الطائشة فى الهواء، يأتونها يصرخون ويطلبون منها أن يرحل، فتأخذه الخالة نعمات من يده وتخرج به إلى الدكان تشترى له الحلوى، وتدور به فى دوائر فى الشوارع المجاورة لساعات، حتى يتعب ويطلب النوم فتأخذه إلى بيته لينام، وينتهى يوم عيده ويرتاح الجميع.

أمضى أعياده يوما واحدا أو نصف يوم، حتى كبر وأصبح يقضيها وحيدا فى بيته، أو يخرج للطريق سيرا، يدور فى ذات الدوائر التى رسمتها له خالته نعمات وفى ذات الشوارع، وإن غابت هى عنه منشغلة بحياتها وأولادها.
كانت السنوات تمضى وهو فى مقعده الأخير إلى جوار الحائط فى صفه بالمدرسة، رفق به جيرانه، توسط له أحدهم لدى موظف كبير يعمل فى البنك ليقبل تعيينه بالشهادة الإعدادية التى لم يستطع تجاوز غيرها، ولما رأى الرجل بنيان عبد الحميد المخيف وافق على الفور.
البنك فى شارع مجاور، يسير إليه عبد الحميد قبل موعد عمله بنصف ساعة، كان فى عمله صامتا يكتفى بالمراقبة، جاحظة عيناه الكبيرتان كفنجانى قهوة عميقة يراقب أو يظن من يراه أنه يراقب كل شىء، موظفو البنك يأتون إلى مقر البنك بوسط البلد متهدلين متعبين، لا يلتفتون لعبد الحميد الجالس إلى جوار

fb/mashro3pdf

الباب ولا حتى بالتحية أو الإشارة أو النظرة، بعد ساعات العمل يتجمعون فى دوائر بانتظار باصات العمل.
إلى جوار البوابة مضت سنواته وهو جالس لا يفعل شيئا غير مراقبة عملاء البنك والموظفين، لا أحد ينتبه إليه ولا هو ينتبه إلى أحد، زملاؤه موظفو الأمن يتسلمون منه ورديات العمل ويسلمونه فى صمت تام، مساءاته فى القهوة بين جيرانه لا تتغير.
وتغير العالم من حوله فجأة وانتبه.. أتت إليه راوية... اقتحمت راوية عالمه ونفضت عنه الغبار فاستيقظ بداخله شىء ما لم يعرفه من قبل...
شئ حار كاللهيب اخترق أحشاءه الباردة، لكنه كان لهيبا ينبض بالحياة، أذاقه لذة الحلم ولوعة الحب...
فى ساعات عمله يحيا عالما خاصا به فى خياله، عالما تسكنه راوية! راوية فتاة الاستقبال فى البنك، كانت رقيقة وجميلة كلها ناعمة، كل ما فيها صغير، أطراف أصابعها وأنفها الدقيق وحذاؤها، كانت فى عينيه كالدمى، كعرائس الأطفال، يبدو ذقنها كطرف إبهام عبد الحميد.

فى أول أيام عملها فى البنك كانت تخافه، ثم أصبحت تحييه دون أن تنظر إليه، ربما كانت الوحيدة التى تحييه برأسها، إيماءة من رأس عصفور، ثم أتى اليوم الذى جعلها تبتسم فيه له، عندما حاول أن يقف لها سريعا فانكسرت يد الكرسى وهو يستند عليه ليقف، وابتسمت له قبل أن تمر من أمامه كطيف عطر زهر الياسمين فى الليلة الحارة ساكنة الريح.

fb/mashro3pdf

تلت تلك الحادثة أياما كان يومئ إليها وهى تعبر بوابة البنك، لكنها لم تتجاوز الابتسام ثانية، كان عبد الحميد يخلق فى خياله عالما تكون فيه راوية له وحده، دميته ورفيقته وحبيبته، وجهها الناعم كثمرة فاكهة يغطيه كف يده.

كيف خلق الله كائنا صغيرا ودقيقا وجميلا لهذا الحد!

الخالة نعمات جاوزت السبعين، انكمش جسدها وظهر هيكلها، وبدا انحناؤها مبكرا، هاجر أولادها ومات زوجها، وبقيت تنتظر لا تدرى ما تنتظر، وحولها قططها التى يكرهها عبد الحميد ويدفعها بحذائه، فى حقيقة الأمر هو يخافها لكنه يخجل من التصريح للخالة نعمات بخوفه، وكانت خالته تعرف وتخفى القطط فى البيت ما إن يأتى لزيارتها، تغلق خلفها الأبواب وتتركها حبيسة غرفتها ساعة زيارة عبد الحميد، إلى جوارها طعامها وشرابها، وتظل تخمش الأبواب وتموء، حتى القطط كانت تتشبث بما تريد ولم تكن تستسلم.

أخرج عبد الحميد من جيب بنطاله علبة مستديرة، فتحها للخالة وأعطى لها فى يدها طقم أسنانها العلوى..

- أصلحته لك يا خالة.

لما ارتدت الخالة نعمات الأسنان، واستقام نطقها وشكل فمها دعت له:

- أشوف ذريتك يا عبد الحميد...أنت لم تعد شابا صغيرا.. لقد جاوزت الأربعين. يا ولدى كل النساء سواء.. اقبل بمن ترعاك يا عبد الحميد.

fb/mashro3pdf

(3)

سى عبد الحميد لست سيدا مثلهم تحتقر خادمتك، تزجرها وتطلب قهوتك منها بغلظة ودون أن تنظر إليها، أنت تنظر إلىَّ أولا، ثم تقترب منى وتخفض رأسك قليلا، ثم تهمس لى:

- قهوتى يا وردة لو تسمحى ..

وأجيبك ورأسى يتطاول ليطال بالكاد كتفيك...

- من عينى يا سى عبد الحميد... حينما أشتاق إليك ينقبض رحمى... هل ستكون شفاء لكسر روحى، انتظرت من الأيام العوض، تمنحنى رجلا، أى رجل يكون كاملا لى، أرحل معه وأبدأ حياة جديدة يمنحنى فيها بيته وأطفاله، بيتا أكون أنا سيدته، ولو كان بسيطا مقارنة بما أعيش فيه اليوم، أنا فى سجن مذهب، كل تلك التحف والمرايا اعتادتها عينى، النجف والشمعدان والسجاد كلها تخرج لسانها لى فى الليل.

فى الليل آكل فوق السجاد وأقف بحذائى فوق قطيفة الكراسى، أريد أن أصحو من نومى وقتما يشبع جسدى، لا أحد يوقظنى مذعورة. أطهو طعاما لأشخاص أحبهم ولو كان قليلا، أتدلل وأطلب من رجلى أن يشترى لى أشياء، ويقوم على شئونى، ربما أغضب منه إن نسى الخبز أو الملح، لا أحمل هم غضبه علىَّ فهو لن يغضب منى أبدا، سيقبل رأسى ويدى، وفى غرفتنا فى فراشى سيقبل قدمى، لن أخيف أولادى سأمنحه وأمنحهم ما حرمت منه.

fb/mashro3pdf

لا أفهم ذرات البن، كيف تستقر فى قاع قهوتك بعيدا عنك بارتياح!
كيف تترك وجه فنجانك!
كيف تنسحب إلى الجدران لتفنى وتجف!
حين تصبح أثرا لأنفاسك... أفهمها حين يذهب دفئها وترسم قطراتها المنسكبة خطوطا لماضيك وربما لمستقبلك أستطيع قراءتها...!
أمسك بين أصابعى فنجان عبد الحميد ابن زينب الدافئ.. أهمس له ولنفسى وأنا أحتضن فنجانك بين راحتى:

- افتحه لى يا رب.. بسم الله..

أنظر وأدقق بكلتا عينى ولا أرى شيئا فقط سواد البن فى قعر فنجانه، أخاف أن أفقده، أزيح له الستار عن بعض أسرارى التى أعرفها عنه، أخبره أنه يسهر كثيرا وأنه عاشق وأنه وحيد، يندهش لمهارتى، لا يعلم أننى أراقبه من خلف الباب والنافذة وفى كل وقت، لا يصعب علىَّ قراءة حاله، لا أحتاج قهوة تخبرنى عن رائحة الوحدة والحب والحرمان.

عبد الحميد جسد ضخم، وعيون كبيرة وهامة حائرة وقلب عصفور..
هكذا أنت يا سى عبد الحميد، أى عيون تلك التى تصنع قهوتك، سوى عيون من ترعاك فى صمت وبلا أمل.. عيون خادمتك وردة!
متى أرسلتك إلىَّ الأقدار!

fb/mashro3pdf

ربما فى نوبة ألم.. من تلك النوبات التى كنت أصرخ فيها.. أنا آسفة.. أنا أعتذر.. أغمض عينى وأعتذر لا أدرى لمن..
أعتذر لمن يسمعنى.. أعتذر لكل من بيده أن يوقف الألم.. وأنا لا أدرى مصدره ولا كيف سيوقفه.. ربما أشفق علىّ أحد ما.. ربما لم يكن من يؤذينى متعمدا إيذائى أو ربما فقط إن سمعنى أعتذر سيصبح رحيما.
مدام ناهد تعتنى بكل ما يخصها تعتنى بملابسها ومظهر خادمتها، بل وحتى بحالتها الصحية، ولون بشرتها المشرق، كل ما ينتمى لمدام ناهد يجب أن يبدو فى أحسن صورة أمام الناس حتى كلبتها البيضاء، وزجاج نوافذ بيتها، ومقتنياتها الثمينة ولوحاتها الزيتية، وطلاء أركان سيارتها الحمراء، بل وحتى هانى ابنها الوحيد المراهق ناعم الصوت، متهدل الجفون، أتت له بمدرسة إنجليزية شابة، تقيم معهم عاما كاملا فى البيت عندما كان فى عامه الخامس، أرادت له سلوكا ولسانا كعمر الشريف، شرقى الملامح فاتن بلكنة غربية، فخرج هجينا كبغل، هكذا كانت تقول عنه وردة لعبد الحميد وهى تشكو له معاملة هانى لها.
لا تزال ناهد بعنفوانها وحدة ذكائها، رغم ما يشغلها من أفعال زوجها الجديد وأفعال ابنها الوحيد هانى، ومشاجراتها مع كليهما، بل ومشاجراتهما مع بعضهما، ما زالت كما هى ثرية وجميلة وكاسرة، كالكواسر المتوحشة، خلقت الفرائس لتقتات عليها بلا ندم، غير أن فرائسها من البشر كل ذنبها أنها سقطت فى يد من فُطِر على الافتراس وإن لم يكن جائعا.

fb/mashro3pdf

تتأمل ناهد من خلف المجلة فى يدها جسد وردة الشاب، وصدرها المشدود، تنظر لبريق عينيها الجامح، وحتى خصلات شعرها المجعد تنبض بالحيوية والعافية، لون شعرها طبيعى لم تصبغه بعد، وحاجباها الكثيفان وشعر إبطها الخشن، علامات العافية تدب فى جسد وردة.
لا تزال الحياة تدين لوردة بالكثير، الوقت أمامها والشباب خلفى، كنت فى عمرها أدوخ أمى حيلا وأكاذيب، اغترفت من الحياة حتى امتصتنى.
لولا جمالى وشبابى لكنت مثلها، بل لولا ذكائى لبقيت مثلها، فى صباى تعلقت برجل لم يترك لى سوى بذرته: هانى. كنت سيئة الطباع نافرة لم تحتملنى أمه وطاوعها هو، أحيانا ما يكون الحب بالغ القسوة، يقتل ذلك الجزء الخفى الشفاف من الروح، فلا هى تشفى ولا تنسى ولا تعاود العشق هذا ما تعلمته من أمى، ما مات لا تعاود إيقاظه مجددا.
كنا نعيش فى بورسعيد، كان أبى موظفا ميسورا، كان يصطحبنى للتنزه بين ميادين بورسعيد ومعالمها، نخرج من بيتنا بشارع الجزائر الممتد إلى قلب بورفؤاد نشاهد البلكونات الخشبية وبلاطها الأحمر الوردى والفِلل الفخمة لمديرى القناة، كانت المدينة كلها عائلات تعرف بعضها..

لم تكن الحياة بمثل هذه الصعوبة التى نعيشها الآن، فقد كانت بورسعيد فى أبهى صورها من نظافة وجمال يضاهى جمال المدن الأوروبية، ديليسبس، المسلة، الفنار القديم، الكورنيش

fb/mashro3pdf

المكسو بالنجيلة الخضراء، جناين الرسوة، كازينو الجزيرة، حديقة سعد زغلول، حديقة فريال، بلاجات بورفؤاد بألعابها المائية، حديقة المنتزه ببورفؤاد، مسرح بورسعيد الصيفى...

الشوارع لم يكن بها زحام إلا فى فصل الصيف، كان يمتاز شاطئنا بأنه شاطئ رملى، لمسافة كبيرة كانت الكبائن الموجودة وقبل بناء كبائن المعمورة عبارة عن فيلات صغيرة. وكنا نمتلك بيتا من طابقين، الحياة كانت بسيطة وبلا عقد أو مغالاة فى الأسعار كانت العلاقات بين الجيران علاقة الأهل.
كان أبى يأخذنى لسماع عزف السمسمية وسهرات الضمة ويغنى لى وأغنى معه فوق المعدية إلى بورفؤاد...

آه كوانى الحب عقبال كل لايم...
يجرب ويعذر متيم وهايم...
قال أنا حبيت أروح لمين يا ناس...
والله يا وعدى... آه يا وعدى
رمونى عيونى لكن الأصل قلبى
رمونى عيونى..
عيونى رمونى.. والله رمونى
مليك الحسن يسترأف بحالى.. والله بحالى
يا اخى آه آهآه
رمانى زمانى..
زمانى رمانى.. والله رمانى

fb/mashro3pdf

عاشت مدينتنا مواجهات عسكرية دائمة ورقدت على الدوام فى انتظار شطحات وغزوات الأعداء، هاجر أهل المدينة أو ارتحلوا أو رحلوا قسرا وغصبا فى كل الحروب كان سكان المدينة موزعين على مدن وقرى ونجوع مصر...
لم تخلُ عائلة من شهيد، ولم يوجد بورسعيدى لم يعرف معنى التحدى والعناد وكره العدو.

بعد هزيمة يونيو 67 ومع بداية حرب الاستنزاف مدن القناة الثلاث كانت على مرمى العدو، وكان ممكن أن تحدث خسائر فادحة فى الأرواح بين المدنيين، السماء كانت مكشوفة وأجسادنا عارية للموت، حينها صدر قرار جمهورى بتهجير أهالى مدن القناة حفاظا على أرواحهم... ذهب من ذهب، وراح من راح، وبقى من بقى داخل المدينة شاهدا على الصمود والخراب فى آن واحد...
قرار التهجير كان تدريجيا بدأ بتنبيهات للأهالى بدهان زجاج المنازل باللون الأزرق حتى لا يكون هدفا لطيران العدو، وجاءت بعدها تعليمات لساكنى الأدوار العليا بالانتقال للأدوار الأرضية وقت الغارة خوفا من الاستهداف، وبعدها صدرت تعليمات بتهجير الأطفال والنساء ثم قرار التهجير الإجبارى لجميع الأهالى.
وارتحلنا أنا وأمى وأبى، كان كل خمس أسر يعيشون فى منزل واحد مما وفرته الدولة فى المدن الأخرى، أو فى بيوت الأقارب والمعارف، أصبحت كل أسرة تعيش فى غرفة تحفظ

fb/mashro3pdf

فيها ما تيسر من أغراضها الخاصة، بينما الصالة بالمنزل الواحد مشاعا لنحو ثلاثين فردا. الحياة المشتركة لا يعرف لهيبها إلا من اكتوى بها!
أخذنا أبى إلى قرية ميت يعيش بالغربية، عند أقاربه، كان القهر باديا على وجه أمى، وهى تحمل أشياءها البسيطة التى استطاعت أن تأخذها فى يدها، طشت وحصيرة وبؤجة ملابس. لم تحتمل أمى هذه الحياة ولم أحتملها أيضا، كنت دائمة الشوق للعودة لبورسعيد، وكان أبى دائم التوق إليها، فهى التى كان يقف وسط شوارعها النظيفة التى يرتادها السياح ويتجولون بالحناطير وتمتلئ بالبضائع الشرقية والغربية، يقول لى أقف وأنظر لشاطئ البحر وأعلم أننى بالقرب من أوروبا ومن العالم بأسره. مات أبى ولم يعد لبورسعيد ثانية.

عقب عودتنا من فترة التهجير التى طالت ست سنوات، كنا لا نعرف لنا بيتا، كل شىء قد تغير. قال أنور السادات بورسعيد مدينة حرة هذه مكافأة لأهل بورسعيد على ما قدموه وقدمه أبناء شعبها لمصر أبناء المهجرين الذين عُذبوا وضحوا كثيرا.
بدأت الأيدى والأنظار تتجه إلينا، وتحولت المدينة الباسلة لمنطقه تهريب وثراء فاحش..
بعد سنوات من الهجر والقطيعة علمت أن أمى عادت إلى بورسعيد مع زوجها، عدت إليها بطفلى، لم تتخل عنى رغم رفض زوجها إقامتى بشكل دائم عندها، كان يخشى على بناته منى، لذا كان علىَّ أن أجد عملا سريعا.

fb/mashro3pdf

فى بورسعيد كان المال والتجارة ورغبة الرجال، لم يكن صعبا علىَّ التقاط أحدهم سريعا، كنت قد تعلمت درسى، أنا أيضا لدى شىء ما يريده آخرون، علىَّ انتقاء من أمنحه له حتى أكتفى وأستقر، مضت بضع سنوات وأنا أتقلب من رجل لرجل، كان علىَّ دفع ثمن ما لأحد ما.

لم تمنعنى أمى بل كانت تتعجل حصولى على ما يشبعنى ويكفينى ويكفيها، لم تكن تثق كثيرا فى زوجها، كان سمسارا فى الجمارك يأكل من كل الجهات ولا يشبع، راهنت علىّ وكسبت، فيما بعد فهمت فيم كان تعجلها، فلكل طلب مواسمه، ولكل عرض ذروة يقل بعدها الطلب المجزى عليه.

وأنا أصغر سنا كنت أعتقد أن الأمور ستصبح بخير ما إن نقرر نحن ذلك.. وأنه لا شىء يصعب علينا إدراكه وتعويضه..

وتناثرت الأيام وانسحبت متمهلة لتثبت لى أن ما أدركته منها لم يكن ليعجزها قبضه عنى... واليوم تباغتنى ذكرى كل ما لم أدرك وتخرج لى لسانها شامتة.. وأنا أقف بين عالمين أحدهما غاب عنى، وما بقى لى من الآخر لن يصعب علىَّ تخمينه..

وتطوف بى رغبة جامحة فى أن أقلب الثابث وأعيد توزيع الأوراق وأطيح بالباقى منها، ثم لا ألبث أن أتذكر أمى وأنياب الرفض تمتصها فأعود وأرضخ وأستسلم لعل بعض الشبع الذى لم تعرفه أمى يسكننى! أنا اليوم سيدة أعمال ثرية وما زلت جميلة أى رجل أتمناه أحصل عليه ماذا كان يمكن أن أحقق أكثر من ذلك؟!

fb/mashro3pdf

(4)
الحب نار تحرق قلوب أصحابها، جحيم يأكل كل حكمة فى عقول المحبين، وأسعد النساء مع حبيبها من لا تحبه!
تتركه يفعل ما يشاء، يعرف من النساء من يشاء، يلهو كيفما شاء، حتى يملّ منهن ومن نفسه، ويرجع إليها ضعيفا خائرا منهكا، ليس له أحد سواها!
سيحبنى لأننى ملجأه الوحيد وملاذه من الوحدة!
مرت سنوات وأنا أخدم مدام ناهد، لا أعرف لى بيتا سوى بيتها، كبرت بينهم وكنت أحب أن أعتقد أننى أنتمى إليهم، ربما بصلة قرابة بعيدة تربطنى بهم.
يكبرنى سى هانى بعدة أعوام، مدام ناهد سيدة جميلة عصبية المزاج، سريعة البطش، تعودت منها لطم وجهى لأتفه الأسباب، لكنها تطعمنى وتكسونى وتعطينى راتبا لا يحلم به أبناء الجامعة.
أنظف البيت وأطعم كلبتها وأحممها، وأقص شعرها وأظافرها، أحملها للطبيب البيطرى وأعالج تقرحات لثتها. لولى هو اسم كلبتها أنتبه لطمثها، حتى لا تلوث سجاد البيت الفاخر، أنتبه لأم مدام ناهد، العجوز التى ترقد فى غرفتها مسنة قعيدة منذ سنوات، أخدمها وأرعاها هى أيضا، فى الصباح تريد شايا بالحليب ثم الفطور، فى الظهر أغير ملابسها وحفاضها وقبل المغرب أحممها، وترقد لتنام بعد أن أعطيها حقنها وأدويتها.
قبل العصر أحمل لمدام ناهد كوب النسكافيه إلى جوار سريرها قبل استيقاظها، وأجهز حمامها قبل أن تصحو، أدلك لها قدميها وظهرها وأعتنى بأظافرها وشعرها، أرتب ملابسها وأعتنى

fb/mashro3pdf

بها، كل ملابسها غالية الثمن تشتريها من محال راقية يتصلون بها ويرسلون لها قياسها حتى قبل أن تطلبها.
تنسى مدام ناهد المرور إلى حجرة أمها لأيام، فأنبهها حتى لا تغضب عليها وتبدأ فى الصراخ ويسمعها الجيران، أما سى هانى فيكاد لا يراها مطلقا، لا أعرف ما الذى حدث بينهما! كان يحبها وهو صغير ويأتى إليها بعد يوم المدرسة، ويرتمى فى أحضانها، ويحكى لها عن أصدقائه... كل شىء بينهما قد تغير.

ستى الكبيرة أم ناهد أذهب إلى السوق صباحا فأعود لأجدها تصرخ فى غرفتها، تريد الذهاب للحمام أو كوب الشاى بالحليب مبكرا عن موعده ولا أحد يجيبها وإن سمعوها، أدخل إليها فيستمر صراخها، ولا تهدأ حتى بعد أن أضع الفطور أمامها، تشعر بالوحشة. كالأطفال تبحث عن الدلال، لا أجد بقلبى شفقة لها.
فى طفولتى كنت أخشاها كخشية ستى ناهد وربما أكثر، كانت امرأة قاسية القلب لا يوقفها صراخى إن أرادت مدام ناهد عقابى، ولا يخيفها صراخ هانى إن رآها وهى تحرق يدى بظهر الملعقة أو تضع إصبعى فوق اللهب.
حين كانت جدته ما زالت بعافيتها كانت تمسك بى وأنا لم أتم العشر بعد، ضئيلة لكننى كنت أقاوم، كانت أمه إن أغضبتها تحشو فمى بالفلفل الحار وحبوب الفلفل الأسود وأنا بين يدى جدته محشورة الجسد والأنفاس، أتعجب أننى لم أختنق ولم أمت، أراد لى القدر أن يستمر عذابى.

fb/mashro3pdf

تعلمت كل شيء من أجل خدمة مدام ناهد وإرضائها، كانت محاسن تأتى إليها كل أسبوع لتنظف لها جسدها، وتملأ بشرتها بأقنعة البشرة المرطبة والكريمات الغالية والزيوت المستوردة، فتعلمت منها صنعتها..
وكانت هدى تزورها كل أسبوعين لجلسات التدليك والمساج فرافقتها حتى أتقنت ما تفعل على الأقل بجسد ستى ناهد وحدها، ربما ما تفعله بالأجساد الاخرى يختلف.. لا أدرى.
أم أحمد كانت تتفنن فى وصفات الطعام المحشى والطواجن والخبيز والمعجنات فتفوقت عليها بالأطعمة الغربية واللبنانية.
لا أحب من الدجاج سوى الأجنحة، ومدام ناهد ليست أكولة أبدا ولا شرهة للطعام، هى تتذوق الأطباق فقط، ملعقة أو ملعقتين وتترك الباقى لزوجها أيا كان وابنها.
لم تستمر زيجة لها أكثر من عامين، دائما ما كان يحدث شيء ما...
فى مرة قلت لها:
- ربما مسَّك سحر أسود أو عمل شرير فأصابك بسوء طالع؟
ضحكت حتى احمرت عيناها وقالت لى إنها لا تحتمل رجلا فى فراشها أكثر من عامين، لو لم يرحل لعملت هى السحر الأسود لنفسها لتصرفه عنها وتتخلص منه.

fb/mashro3pdf

كنت أراقبها مع أزواجها من خلف الباب وأشتهى ما تفعل، كانت امرأة كاملة جميلة غضة تتمسك بشبابها ويتفلت منها، وأساعدها ليبقى بالكريمات والراحة والمساج، وتساعد نفسها وتبقيه بأن تهنأ كل يوم بكل بما فى يومها من حياة.
كبرت وأدركت مع كل هذه السنوات مكانى بينهم، من أنا فى البيت، خادمة نعم لكننى أهم من فى البيت، أفراحى وأحزانى نعم ترتبط بما يدور فى البيت، أفرح لزواج مدام ناهد ونجاح سى هانى، وأحزن إن طلقت أو رسب سى هانى أو مرضت الست الكبيرة، لكن حياتهم بدونى تتخبط، هم لا يعرفون بعضهم ولا يدركون أن كل يوم يمر أتحكم أنا فى حياتهم أكثر.

لسنوات كان هذا البيت هو الدنيا كلها لى، وخارجه عالم آخر لا صلة لى به، كنت أرتدى ملابس ستى ناهد التى ضاقت عليها أو التى ملت منها ونسيتها فى الدولاب، أو التى أخفيتها أنا عنها حتى نسيتها وتغيرت موضتها.. أو التى أعلم أنها تذكرها بما يغضبها فأخفيها عنها، كانت إن رأتنى أرتدى ملابسها تقرص وجهى وينتهى الأمر عند هذا الحد.
عطورها وأدوات التجميل الراقية والزينة كلها عندما تخرج تكون ملكى، مرآتها وفراشها وأحذيتها وإكسسوارها، وحتى مصاغها كلها فى غيابها ملكى، بل وكل البيت فى غيابها ملكى، كانت تخرج إن كانت فى أول علاقة جديدة فقط، حتى إذا تمكنت من امتلاك رجلها الجديد أصبحت لقاءاتهما فى البيت.

fb/mashro3pdf

ساعة الغروب أفتح الباب لمدرس الموسيقى مستر كمال، كان يأتى لهانى كل يوم، لا يتغيب إلا لعذر قاهر. كان مستر كمال كما يناديه هانى، رجلا سمينا أصابعه غليظة أحمر الوجه له شارب خشن، يدخل حجرة هانى فأسمع صوت الآلات الموسيقية فور دخوله. وكانت ابنته مديحة تأتى معه.

كانت مديحة تدرس مع هانى دروس التاريخ بعد ساعة الموسيقى، كان مستر كمال يذهب ويتركها تنتظر مدرس التاريخ مع هانى، كنت أراقبهما من بعيد كانت مدام ناهد تطلب منى ذلك بنظرة من عينيها، وإذا طلبا منى طعاما من المطبخ أعده لهما سريعا وأعود لاهثة، أما إذا طلبا حلوى أو أى شىء من الشارع فكان يجب أن أبلغ مدام ناهد أولا وكانت توافق فأذهب فى سرعة لا أدرى سببها وأعود فى لمح البصر إليهما لأجدهما على غير الحال التى تركتهما عليها.

كان هانى ومديحة يكبرانى بعدة أعوام، كان هانى وسيما ممتلئ الوجه والروح بالحياة يستمتع بالمتاح منها مثل أمه مدام ناهد... بمرور السنوات لم يعد هانى بحاجة لدروس الموسيقى، ظلت مديحة تتردد على البيت كواحدة من أفراد الأسرة، كانت وهانى يجلسان فى غرفة سى هانى لساعات يتهامسان وربما يغرقان فى الصمت، وإذا أحسا بوجودى التفتا إلىّ فى ضيق وقلق، وافتعلا معى أى شجار، شجار لا سبب له سوى أنفاسى.

fb/mashro3pdf

"بتعملى ايه يا بت امشى من هنا"... كانت تلك كلمات سى هانى التى يعنى بها أنه لا يريد أن يرانى ولا أن ترانى مديحة حتى ينفرد بها لبعض الوقت.

كنت ذات مرة خلف الباب أختلس النظر إليهما ورأيت هانى يعطى مديحة قطعة من مصاغ أمه، كنت لم أتجاوز العاشرة لكننى كنت فارعة الجسد.

لم أستطع أن أصمت طويلا أو أفكر، أكلتنى نار فى قلبى لا أدرى سببها، فأسرعت لغرفة ستى ناهد وأبلغتها بما رأيت، ووصفت لها خاتمها المفقود الذى أعطاه هانى لمديحة وألبسه لها فى يدها، كنت أصف وصفا لا يخلو من بعض البهارات، ولا يخلو من مبالغة فى تعظيم قيمه الخاتم لديها، حتى أننى ذكرتها متى كان فى يدها آخر مرة ولون فستانها الذى كانت ترتديه يومها...

وما حدث بعد ذلك لا أذكره، ظلت تلطمنى على وجهى وعينى لطما متلاحقا بحذائها حتى كادت تفقدنى عينى، وسال الدم من وجهى وفمى، وفقدت وعيى، وعندما أفقت وجدت سى هانى ومديحة فوق رأسى ينظران إلىَّ بغضب واحتقار، ورأيت الشماتة فى عين مديحة. يومها تعلمت ما يجب أن أبوح به وما يجب أن أراه وأكتمه.

لم أكن أعى قبل هذا اليوم أن الست ناهد لا تريد أن تعرف ما ينغص حياتها حتى لو خسرت مصاغها كله قطعة قطعة، كنت بعد هذا اليوم أسمع صوت أقدام مديحة وهى تصعد السلم فأختفى فى غرفتى حتى لا أراها ولا ترانى.

fb/mashro3pdf

هل ستصبح مديحة سيدة البيت وأناديها بست مديحة أو مدام مديحة.. هل سيحبها هانى ويتزوجها؟ هل تحبه ذلك الحب وهل هو يحبها ذلك الحب؟!
وأنا.. من سيرعانى ومن سيحبنى؟ كان هذا السؤال يلح علىّ ويكبر معى، يضغط على رأسى كلما رأيتهما معا، أصبحا لا يفترقان سوى للنوم فى الليل.
عاد هانى للبيت ذات يوم مبكرا وتأخرت مديحة، كانت تلك لحظتى، شعرت بمللە واحتياجه لمن يجالسه، دخلتُ إليه فى تلك اللحظة لم يهتم من التى معه إن كنت أنا أو مديحة، فى تلك اللحظة خطر لى خاطر مجنون، أنه قد يحبنى أنا بدلا منها، وربما تحدى الست ناهد من أجلى أيضا وأهرب معه إلى أى مكان بعيدا عن البيت...
وتجاوب هانى معى، وأصبح بيننا سر كسره مع مديحة.
ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول البقاء بقربه بكل الوسائل والاهتمام بمظهرى ورائحتى، وأختلس الدقائق التى تغيب فيها مديحة عنه وكأنها بالنسبة لى عمرا بأكمله، فأتفنن فى إرضائه وبذل نفسى لإسعاده، تعلمت فنون الغواية من مراقبتى لباب أمه زيجة خلف زيجة.
كنت ألاحظ قلق هانى وهو يبحث بعينيه عن مديحة، وينتظر دخولها علينا فى أى لحظة، وما إن أشعر بهذا حتى أمطره بالمزيد والمزيد لينساها ويبقى لى ولو لدقائق معدودة، وازدادت حيرتى فقد استنفدت كل حيلى، وسكبت أنوثتى وما زال هو يأخذ ما يريد ولا تغيب مديحة عن جلستنا ولا عن خياله.

fb/mashro3pdf

ما إن تأتى حتى يدفعنى عنه فأذهب من غرفة إلى غرفة أدور فى البيت كالنحلة لا أهدأ، وكنت أسال نفسى ما الذى تملكه ولا أملكه!
لم تكن مديحة غافلة عما يحدث بيننا لكنها لم تعترض، وكانت تنظر إلىَّ واجمة شاردة ينسكب الحزن من عينيها، وكنت وحدى أعلم ما بها وأعلم سر حزنها، فقد كان هو نفسه سر حزنى.
ماتت سيدتى الكبيرة. فى صباح حار دخلت عليها لأنظفها وأطعمها، كانت باردة متصلبة لا تتحرك، كنت أصرخ وأجرى فى البيت مذعورة أوقظ النيام، وكأننى لم أكن أتوقع موتها ولا أتمناه، كنت بالفعل مذعورة كنت أدرك أنها باب يحول بينى وبين التخلص من عبوديتى كان موتها صك تحرير أو نصف صك، النصف الآخر كان بيد مدام ناهد، لم أكن أحلم بالحرية فلما جاءتنى فزعت منها وخفتها.

كنت أجمع الماء المنسكب منها فى الغسل وأضعه على رأسى وأنا أنوح وأولول، كانت النسوة يصبرننى ويربتن فوق كتفى ويحتضننى ما جعلنى أشعر أننى فقدت جدتى بالفعل وأتمادى ولو أمامهم وحتى يرحلوا.
وتحرك الرجال بالنعش وأنا خلفهم أتصارخ، لم يكن البكاء عليها صعبا كان علىّ فقط تذكر خنقتى وصراخى بين يديها والفلفل الحار فى حلقى وصدرى.

fb/mashro3pdf

ما إن خرج الجسد محمولا مشيعا بالنواح حتى دخلت مدام ناهد البيت وأغلقت الباب خلفنا، وذهبت أنا خلف الرجال وحدى للمقابر، لم أرَ هانى يومها ولا لأيام الحداد الثلاث التالية التى أصررت على إقامتها فى البيت، كنت قد رتبت كل شىء رغما عن مدام ناهد، صمتت لإصرارى وتحرجت من رغبتها فى التهرب من العزاء وارتداء السواد ثلاثة أيام متصلة.

بإصرار تماديت وأتممت طقوسى واستأجرت مقرئا وصوانا، وفرضت عليها إقامة مراسم حزن تليق بالجدة الكبيرة وتليق بنا بين الجيران، أو هكذا ادعيت. كنت أشعر بالرضا والتشفى أننى يمكننى أن أحكمها وأتحكم بالبيت ولو لأيام العزاء الثلاث فقط. كنت أسأل الجارات عن الأصول والتقاليد وأتبعها بدقة، حتى أننى نشرت نعيا فى الجريدة، وكتبت فيه اسمى بعد اسم سى هانى، وغضبت مدام ناهد وهى ترى التكاليف، لكنها لم تجرؤ على معارضتى فافتعلت معى شجارا بسبب فقدها أحد فساتينها، فستانها الدانتيل الأسود، لكنها والحق كانت لا تبخل عن تكريم ذكرى أمها بالمال، إنما كانت تضيق بالنكد والأحزان وإجبارها على الجلوس بين المعزيات ونسوة الحى يلتهمنها بعيونهن، وكان ضيقها هذا يسعدنى.
ما أزعجنى حقا أننى بالفعل بعد موتها افتقدتها أياما وشهورا مضت، خلا البيت علىّ وأصبحت لا أجد لى عملا فى النهار وحتى العصر، كنت أسامرها وأتذمر منها لكنها كانت تملأ البيت بصياحها وطلباتها، كانت تحدثنى أحيانا عن شبابها وطفولتها، حقا البنت سر أمها، حياة مدام ناهد كانت نسخة

fb/mashro3pdf

مكررة عن سيرة أمها، كانت لها ذات الملامح والدم القلق، كنت أشم فى قصصها إحساسا بالندم وتبكيتا للضمير لا أدرى سببه، كانت تتخفف من ذكرياتها بقصها علىّ، تفتقد ابنتها الوحيدة وتخشى أن تلومها، كانت تغلف ندمها ووحدتها بالغضب.

بعدها الآن تأكلنى الوحدة والصمت، وحيدة كل الوحدة وسط عالمى الصغير التافة، لا أدرى ما أفعل بحريتى، ولا أجد من أتذمر منه، لم يعد لاستيقاظى مبكرا سببا معقولا ولا لذهابى للسوق مبررا منطقيا، كانت عجوزا قعيدة ولكنها كانت فى البيت كل شىء، حتى وجبات الطعام لم تعد هناك ضرورة للالتزام بمواعيدها، كانت تقيم الدنيا وتقعدها إن تأخر موعد الغداء حتى ولو لم تأكل، أسامر حالى وأطهو لنفسى، هانى يأكل وجبات سريعة جاهزة وأمه لا تأكل فى البيت إلا نادرا، لا طبيب يدخل البيت ولا هاتف يكسر صمت البيت ولا زيارات جيران ولا طالبى صدقة يطرقون بابنا، اختفى كل هؤلاء برحيلها.

fb/mashro3pdf

(5)

خرج عبد الحميد من البيت فى يوم إجازته، يائسا محترق الفؤاد، راوية تضيع من يدى، يضرب الأرض بباطن قدميه، يأخذها أحمد يستلها رويدا رويدا، يسرقها منى.. كان كل الحزن حاضرا فى وحدته ووحشه قلبه.. ليتنى أعرف ما تخبئ لى الأيام لربما برد قلبى..

خالتى نعمات ربما تذكر شيئا عن المرأة التى كانت تذهب لها أمى وتصنع لها أحجبة المحبة والعشق لأبى...

الوقت ضحى.. واليوم حار، جلست بقربها، كانت فيما يبدو نائمة لم أعد أدرى، عيناها مفتوحتان وفمها أيضا، إنما أنفاسها منتظمة، ساكنة أيا كان حالها، لم تنتبه خالتى لى وأنا أدخل بيتها بمفتاحى، ربما نائمة أو غائبة لم أشأ إزعاجها. رتبت لها البيت ونظفت لها قططها التى تحبها، أنرت لها نور السلم، كدت أن أرحل عندما نادتنى..

- تعال نشرب قهوة يا عبده...

كنت أجالسها ساعة وتجالس أمى التى تراها فى وجهى ساعة.. سألتها بالله وأنا أقبِّل رأسها وهى تسكب قهوتى بيدها المرتعشة:

- تعرفى شيخ هنا من أهل الحى ثقة؟ يمكن الشيخ أحمد المغربى واللا أبونا بطرس؟

سمعت الحكى من أهل الحى أنه ما يخيب من رجاه.. حجاب المحبة يا خالة نعمات يمكن ولو بالسحر يا خالة أتزوجها وأحلف أنى أصونها، حجاب يا خالة يسخر لى قلب راوية...

fb/mashro3pdf

تتحسس يد الفنجان ثم تديره وتمسح فمه بإبهامها، نظرت إلى بعينيها اللتين بهتتا بالمياه البيضاء والعجز ولم تجب. تنهيدتها أعلمتنى أنها تسمعنى فأسهبتُ وألححت عليها فى طلبى..
سألتها بالله ثانية، ورفعت صوتى لتسمعنى وانحنيت لألتصق بكتفها.. شمت قهوتها قبل أن تفور.. رفعت يدها عن السبرتاية وأغلقت خيط اللهب الباهت.. وأزاحت ركبتها نحو القبلة تعتدل لتصلى جالسة...
يا خالتى نعمات بالله عليك ورحمة أمى وغلاوتها عليك.. أعمل لراوية عمل محبة يخليها تسعى ورايا.. باحبها يا خالة.. أتزوجها... أسعدها واكون بين ايديها وتحت طلبها. استدرات نحو قبلتها لتصلى، مهلِمة إلحاحى عليها ودموعى التى توشك أن تسقط بين يديها...
يا خالة نعمات أسأل نسوان الحى لحالى ولا تريحينى.. لو أمى كانت عايشة كانت راحت وأخذتنى معها.
ضربتنى فى صدرى بطرف عصاها، فانسكبت قهوتى..
ضربتنى فى صدرى ضربة ظل أثرها أسبوعا!
لم أعد لزيارة بيتها وتلبية حاجياتها، كنت غاضبا حتى أننى فى المرة الأخيرة وقبل أن أذهب حبست كل قططها فى دولاب الخزين حتى لا تسمع صوتها وتخرجها، كنت أخافها وأخاف أن تعود إلىَّ فى أحلامى وتعاقبنى بعصاها على فعلتى.
وبقيت لا أزورها حتى قيل لى أنها ماتت، فقلت استراحت من الحياة.. ورحلت إلى أمى تشكونى لها.

fb/mashro3pdf

بالقطار سافرت وردة بعبد الحميد، ساعتان نامهما، أيقظته بصوت هامس:

- وصلنا يا سى عبد الحميد ننزل المحطة الجاية.

دفعت وردة بالحشود حتى خرجت به من المحطة، وركبا سيارة أجرة صغيرة، ظلت تخوض بهما طرقات متربة وأزقة، أشارت وردة للسائق ليتوقف عند منعطف أخير، طلبت من السائق أن ينتظر نصف ساعة فرفض، هم عبد الحميد بالتدخل، لكنها أشارت إليه بنظرة عينيها ألا يفعل، أمسكت وردة بيد عبد الحميد تسحبه خلفها من زقاق إلى عطفة، كان مستسلما لها، يسير وراءها سارحا فى راوية والحنين إليها يرجه من الأعماق رجا.

دخلت به إلى بيت طينى داخل ممر مظلم طويل من بيوت تماثله، مسقوف بألواح الصاج المخرم القديم. كان عبد الحميد يسير منحنيا، الممر منزلق وحار وضيق، جذب ذراع وردة، فأسرعت بخطواتها لتختصر ربما خطوة أو خطوتين.

البيت كان أكثر ارتفاعا عن الطريق، رائحة الممر خانقة، الهواء عطن بداخله لا ممر يعبر منه، تنغلق المسالك كلها باتجاه البيت، رائحة الفضلات الآدمية تملأ أنف عبد الحميد، خيل إليه أنه يدهس بعضها تحت حذائه الكبير، لم يكن فى وضع يسمح له بالنظر أسفل قدمه أو الاعتراض، الرائحة تسرح من أنفه إلى فمه وتذوب ذراتها فى لعابه، فأصبح يتذوقها ويمتلئ حلقه بطعمها.

fb/mashro3pdf

كانت وردة تمسك عبد الحميد بيد وتمسك غطاء رأسها باليد الأخرى، بدت معتادة تعرف الطريق، تتفادى بقدمها ما يدهسه عبد الحميد، تدفع الصغار العرايا عن طريقها، وتعطى بعض النقود للنسوة اللاتى يمددن لها أيديهن، لا رجال فى الطريق نحو ذلك البيت، بيت الشيخ الشارد.
كانت وردة تفكر بسرعة وهى تنظر خلفها نحو عبد الحميد، تأخذه بيدها للشيخ الشارد، شيخ الطريقة والأحجبة الموصوفة للمحبة وربط الأزواج ودفن السحر وفك المربوط وجلب الغائب، تأخذه بيدها للشيخ ليربط له قلب راوية حبيبته.
لماذا تفعل ذلك هل تحب راوية لكى تمنحها حبيبها؟ هل عبد الحميد حبيبها؟
.. هل تحب عبد الحميد إلى هذا الحد، هل هو طفلها الكبير تريد أن تمنحه ما يريد! يأمرها فتطيع وتلبى رغبته، هل ستحرقها فعلتها تلك؟ هل عبد الحميد سينساها إن جلبت له راوية؟!

الشيخ الشارد الراقد وسط أدخنته وأبخرته، فى الغرفة الضيقة التى بالكاد تسع مقعدين، امامه طاولته المنخفضة ذات الثلاثة أرجل والصينية النحاسية التى يلقى فوقها بأوراقه المحروقة، وتعاويذه وتلك الأشياء ذات الرائحة الزفرة بين يديه.
هل الشيخ الشارد قادر على ربط قلب راوية وجلبها لعبد الحميد؟ ولماذا لم يربط لى قلب هانى حين لجأت إليه أطلبه منه؟
لماذا لم يتحقق مرادى وقد فعلت كل ما طلب منى وأكثر؟

fb/mashro3pdf

صلوات عشرات الركعات كل ليلة، ودعوات وأوراق محروقة أكتحل بها ثلاث ليال كل شهر عربى، زجر سليمانى أتلوه، وآيات قرآنية أحفظها، وماء مقروء عليه، وطعام أوزعه بالأضرحة والموالد، رائحة حبوب الفلفل الأسود والكزبرة ولبان الحصى وبخور عين العفريت تملأ ملابسى ودولابى...، تشم مدام ناهد الرائحة وتسخر منى..
يابت بيضحكوا المشايخ عليكى، ...
غيرك كانت أشطر منك! تضحك حتى تسمع كلبتها ضحكتها وتجرى إليها.
آه... لو كانت تعلم ما كانت تريده وردة يومها وما كانت تطلبه لفتكت بها...
قلت له يومها:

- حبيبى زعلان منى يا شيخ شارد. اربط لى على قلبه خليه لا ينام ليله ولا نهاره. خليه ما يشوف غيرى ولا يرفع عينه عنى.

بلحيته المُعفّرة بالبخور ووجهه الممتلئ بالبثور، وعمته البالية ورائحته التى تشبه خليط السمك بالبيض، نظر إلىَّ يومها وتمتم:

- يا مُعيد ما أفناه إذا برزت الخلائق لدعوته من مخافته.

لم أفهم عبارته الغامضة لكنها أثارت فى نفسى الهيبة.
قال بصوته القوى:

- "خذى بيضة بلدية وقلم رصاص اكتبى عليها من جهة اسمك واسم أمك. ومن الجهة الثانية اسم حبيبك واسم أمه. أما أسفل البيضة فاكتبى كلمة حب بالمقلوب!

fb/mashro3pdf

اسلقى البيضة فى ماء مقروء عليه. وبعدما تنضج قشّريها، ولا تضيعى أيا من القشور حتى ولا قطعة صغيرة. كلى البيضة أما القشور فادفنيها فى تراب مزهرية، وبعد ثلاثة أيام سيتصل حبيبك ويجرى عليك".

- فعلت ولم يتصل حبيبى يا شيخ شارد!
كدت آكل القشور بدلا من دفنها ولم يأت يا شيخ شارد!
كم بيضة يجب أن آكلها ليتحقق المراد يا شيخ شارد؟

يربت على لحيته، يتحشرج صوته وهو يقول:

- هيّن. ما عليك يا ابنتى!

أمرك هيّن. نعمل له الربط المعقود...

- اكتبى (غلمش غلموش عليوش مليوش) على قطعة سكر، وضعيها نصف ساعة تحت كعب رجلك، ثم ضعيها له فى كوب عصير يشربها، ولا تشكى فى تحقق النتيجة. الربط ده لازم ومُجَرّب مثل النار!

لن يهدأ إلا معك ولن يرتاح إلا بين يديك...

- فعلت ولم يأت يا شيخ شارد!

ربما لم تكن قطعة السكر مكتوب عليها أحرف صحيحة بخط واضح!
وربما البيضة لم تكن بلدية!
أو أن قشرتها لم تحتمل اسمينا معا!
وردة وهانى اسمان ربما لن يجتمعا فى هذه الحياة!
أين أنا من سى هانى.. سى هانى ومديحة حبيبان!

fb/mashro3pdf

من دون أن تكتب اسمها فوق البيضة هانى يحبها يا شيخ شارد!
هانى لا يرى غير مديحة!
تمتم الشيخ بالكلمة التى لا أفهمها:
- يا مُعيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته.
لنجرب اليوم حظك يا سى عبد الحميد مع الرجل الشارد، ربما راوية حبيبتك فى النهاية تقع بين يديك وتصبح لك.
قالت وردة بهمس لعبد الحميد:
- الشيخ الشارد بركة ياسى عبد الحميد، له السفر، وإن عزّم لان له اللى ما يقدر عليه إلا ربه، اسمع منه يا سى عبد الحميد، وخد منه عطيته، ولا تشك فى صدقه، عمله لجلب الحبيب موصوف...

دخل الشيخ يتمتم :
- يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته.
دخلت وردة الغرفة ودخل معها عبد الحميد وجلس، قامته كانت أكبر من أن يظل واقفا. كان المكان خانقا وحارا ورائحة الزفر تطغى على رائحة البول والفضلات فى حذاء عبد الحميد.
تمتم الشيخ:
- الله يا من يرد الشمس من مشرقها إلى حجبها، والطيور إلى أوكارها، ومن رد يوسف لزليخة... أنزل محبة عبد الحميد ابن زينب فى قلب راوية بنت... بنت ايه اسم أمها؟
نظر عبد الحميد لوردة نظرة عجز وقلة حيلة وقال للشيخ:
- -لا أعرف.

fb/mashro3pdf

قالت وردة:

- بنت حوا يا شيخ... راوية بنت حواء.

قل يا عبد الحميد:

- يا خميثا يا شهيئا يا شهيئا وتكررها ثلثمائة مرة، واقرأ فاتحة الكتاب وسورة الشرح خمسة آلاف مرة... ثم قم واخرج لراوية وفاتحها فى أمر حبك لها، وأنت على يقين من ربط قلبها بيدك.

fb/mashro3pdf

(6)

القوى المجهولة تتحرك لمساعدتى ثانية، أحمد يتغيب عن عمله كثيرا، لا يركب الباص إلا نادرا، ماذا حدث له؟!
راوية حزينة صامتة دائما، قلبها مكسور، هى فرصتى!
وجهها مسودّ وعيناها زائغتان، ما كانت لتوافق علىّ فى وجود أحمد، أما الأن وبعد أن رحل عنها وكسر قلبها وكبرياءها فلدى فرصة، جريحة وستستسلم لى.
سأتزوج راوية، مات الحب فى قلبها، هى الآن يائسة تبحث عن مأوى، كنت أتمنى المستحيل والآن الطريق إليها مفتوحة، كل ما علىَّ هو أن أقتحم عالمها وأمنح نفسى فرصة إلى قلبها.
لكن هل ستحبنى كما أحبت أحمد؟ أم سيكون منظرى إلى جوارها مثيرا للسخرية، لا يهم ستحبنى مع الوقت والأيام!

تستثقل راوية ظل عبد الحميد ككل من فى الباص، لكنها كانت الأسرع بينهم فى التذمر منه، وشحن الجميع ضده.. لم تعد تخشاه، رأت ضعفه وهشاشته وفراغ عقله.
عبد الحميد هو من أفسد على نفسه ساعة قربه منها، تحداها وأثار غضبها أفسد عليها أجمل ما فى يومها، ساعة لقائها بأحمد ووجودها بقربه.
ساعة الطريق أصبحت ساعة قلق وضيق لأحمد بسبب مناوشات عبد الحميد له.

fb/mashro3pdf

تقول دادة حليمة:

- -"يا عبد الحميد أولادك محبوسين فى ظهرك.. تزوج نفسى أشوف عيالك..
أنت بطولك فى البيت مثل صبار الصحارى... حتى الصبار له ولد يخرج من جوفه... كل ما يبتروا جزء منه ويرموه فى تربة جديدة يخرج منه عود جديد.
- كنا نلهو أنا وأنت يادادة بالصبارات فى صغرى! هل تذكرينها؟
كنا نلصق قطعتين غريبتين عن بعضهما، بسكين حاد كنا نبترها عن شجرتهما الأم، نلصق اللُّب الأبيض فى داخله فوق اللب الأبيض الآخر، يلتصق وينمو منهما عود جديد، شكل جديد، نبت مشوه أو ربما جميل حسب ما نختار له أن يكون، وفى كل الأحوال كان يعيش.
- أنت زينة الشباب يا عبد الحميد لولا حالك الساكت...، اللى فى سنك أولادهم بين ركبهم.
- يا دادة راوية موظفة فى البنك وأنا حارس أمن.. حتى النظرة التى آخذها من عينيها تكون لدفتر الحضور... راوية جميلة يا دادة لما أشوفها ينكسر القلم فى يدى..
أنا يا دادة عمرى ما تمنيت.. طول عمرى راضى، لكن لما شفت راوية عرفت انى من غيرها أبدا لن أرضى...

fb/mashro3pdf

تصمت وبحزن تربت على كتفه الضخمة:

- لماذا يا ولدى عينك تختار الصعب عليك، كانت أمك تقول عبد الحميد ابن بطنى شكله شكل المارد لكنه أمير... حاسس فى قلبه إنه أمير، وروحه روح فارس نبيل، ما يشوفها إلا الطيبين.. راوية إذا ما تشوف روحك الطيبة.. روح الأمير هى من يفوتها الخير.. انساها يا ولدى... ربك يرزقك خير منها.. اللى ما يحطك كحل فى عينه ما تاخده صرمة لرجلك.
- لا يا دادة حليمة.. راوية من الطيبين،... راوية حبة توت وأنا صبار الصحارى... أمى لم تعرفنى، أمى كانت تحبنى وتشوفنى أمير.. أنا خلقتى مارد ولا يوم كنت فارس ولا عمرى يوم أكون أمير.
- ليه يا ولدى بختك من بخت أمك تعيس... يرحم أمك يا ولدى.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(7)

كانت راوية أول من تقدم بشكوى لإدارة البنك، كتبت فيها أن عبد الحميد يتلقى أموالا من بعض الموظفين مقابل تأخير تحرك الباص لينتظرهم، وما إن يصل الباص إلى محطته الأخيرة أمام البنك حتى يهبط هو أولا، ويصر على فتح الباب بنفسه، واستقبال الموظفين بمصافحة حميمة باليد وانحناءة لا جدوى منها، تستفز بعضهم وتعطلهم عن الدخول لعملهم.
لم تكن تلك الوقفة التى يفتعلها عبد الحميد سوى فرصة للاقتراب من وجه راوية، والإمساك بذراعها وهى تهبط السلم رغما عنها، وكثيرا ما دفعت بذراعه عنها لتهبط وحدها، فكان ببلاهة لا يتحرك من أمامها حتى تنظر إليه وتشكره، تلك اللفتة كانت بالنسبة له أعظم من ساعة الطريق التى يقضيها كل صباح فى الباص منتظرا إشارة منها أو لفتة أو ربما ابتسامة ولو لشخص غيره.
تقف راوية أمام مكتب المحقق كاملة الانفعال والهيبة، تحكى له ما فعل عبد الحميد وتروى كل جرائمه فى حقها بثبات، وكان عبد الحميد يتصاغر وينكمش كلما تفوهت بكلمة وأشارت بأصبعها السبابة نحوه. بقى الشهود صامتين، كانت حاضرة الذهن تسجل كل أخطائه وأفعاله، امتلكت من الكلمات الغاضبة أكثر مما تحتاج للخلاص منه، لم تكن بحاجة لعون من أحد، لا أحد غاضب أكثر مما هى غاضبة اليوم.. سمع ضمن ما سمع منها اتهامها له أنه كان يغازلها.. كان يتبعها بعينيه.. يتعمد أن

fb/mashro3pdf

يحيطها بأنفاسه، كان هواء صدره كثيفا، بحجم صدره الكبير، ويكفى لأن تختنق وتنفعل إن اقترب منها..
وما العيب فى هذا يا راوية!
ألم أنظر فى عينيك كل صباح.. فى قاع عينيك البنيتين! ألم تضبطينى أرتعد وأنا أنطق باسمك! كنتِ تعلمين يا راوية... لماذ تغضبين الآن!؟
سمعها عبد الحميد تحكى حكاية أحمد، الذى أفسد عليه حياته ودفعه لترك عمله والهجرة لوطن لا راوية فيه..
لا تريدين الاعتراف بأنه هجرك يا راوية؟ تلقين بالذنب فوق رأسى وحدى!
.. إن كان يخفف ألمك أن تذكريه بخير فافعلى.. لو أحبك يا راوية لبقى.
وأين هو أحمد؟ لم يأت ويتهمنى.
ظل عبد الحميد صامتا ينظر إليها بلا تعبير على وجهه.
فُصل عبد الحميد من عمله، بعد أن أكد كل من فى الباص أقوال واتهامات راوية، وصمت عم محمد السائق، وأمَّن الجميع فى البنك على كلامها، كان عبد الحميد قد تخطى كل حد ونسى نفسه.
التفت الحاضرون حوله فى مكتب المدير وهو يتسلم أوراق إنهاء خدمته، كانت نظراتهم خليطا من الراحة والخوف، لكن الراحة كانت غالبة.
فور خروجه كانت الضحكات المكتومة تخترق ظهره، شعر بماء حار ينسكب فى ظهره، قطعة من اللهيب خلف رأسه، حبات العرق تنضح من مسامه ساخنة يشعر بها قطرةً قطرة،

fb/mashro3pdf

انتقل اللهيب لجمرتين فى عينيه، نظر لمقعده بجوار البوابة وشعر بالندم.
هل كانت راوية تستحق كل هذا السعى واللهاث؟! هى مجرد امرأة!
ماذا قدمت له ليحرق كل ما بيده من أجلها!
خرج حبها من قلبه فجأة كما دخل فجأة وحل محله الندم والألم، تأخر تخليه عن حلمه بها قليلا، لماذا انجرف فى حبها هكذا..
لماذا لم يكن يراها على صورتها الحقيقية؟!
لماذا خدعتنى؟ لماذا أنا أحمق؟ لماذا أنا عرص؟
خرج عبد الحميد من البنك يسير على قدمية بخطوات متراخية، لا يدرى أين يذهب يريد أن يبكى منفردا..
السيارات صوتها مرتفع والوجوه حاقدة حتى وجهه هو بدا أنه لا يعرفه،
تأمل وجهه فى زجاج السيارات، كان كريها، عيناه كبيرتان منتفختان تملأهما الدموع، ووجهه مسطح مكفهر ووجنتاه محتقنتان، فمه لا يريد أن ينطبق من فرط الألم.. مفتوح، والهواء الحار الساخن يخرج من قلبه مندفعا لا يملك كتمانه، كان عبد الحميد يشهق ويبكى ولم يجد مأوى له سوى مسجد الزاوية القريب من البنك، قدماه لم تحملاه أكثر من بضع خطوات، فدخل ورقد ونام مخبئا وجهه بين ذراعيه مستلقيا إلى جوار أبعد حائط وأضيق زاوية، كانت أنفه ترعف وغطى البول ملابسه لكنه رقد وصمت واستكان فى نومته..
كانت أحلامه مُرة وكاوية، لم ير فيها أمه ولا خالته ولا راوية وإنما كان أحمد والمحقق وأصوات الباص وقطط خالته نعمات.

fb/mashro3pdf

فى اليوم التالى لم يكن عبد الحميد قد استوعب ما حدث كلية، استيقظ فى موعده مبكرا وربما أبكر من المعتاد، وركب الباص ١٠٢، لم يبد على عم محمد أنه يعلم شيئا مما حدث، بعد أن خرج من مكتب المحقق، ركب عبد الحميد الباص كعادته وجلس فى المقعد الكبير بجوار السائق، كل من ركب بعده نظر إلى ظهره بدهشة وتعجب واخترق عظامه بشماتة وسخرية.
لم يبالِ عبد الحميد بأزيز يصل أذنيه منهم، وانتظر راوية، كان يريد أن يخبرها أنه أصبح غنيا بالأمس، وأنه استبدل عقد إيجار شقته الكبيرة فى الزمالك بمبلغ من المال ذى ستة أصفار، يمكنها أن تشترى به ما تريد، ستكون أميرته حقا، يجب أن يخبرها، لا بأس أن يسامحها على ما حدث بالأمس ويلتمس لها ألف عذر، وما حاجته للأعذار منها وهى حبه وحلمه!
اقترب الباص من محطتها، هبط قلبه وتقلص بين رئتيه ثم صعد إلى حنجرته، تعرقت يداه ودمعت عيناه، نظرت إليه راوية وهى فى الطريق، وهو جالس ينظر إليها من النافذة ويبتسم ببلاهة ويشير لها بأصابعه لتسرع وتصعد.
وقف الباص ينتظرها، ما إن رأته راوية حتى اشتعلت عيناها بالغضب، ووقفت تنهر السائق عم محمد وتلوح له بالعقاب والخصم وهو لا يدرى عما يحدث شيئا، ينظر لوجهها الغاضب ووجه عبد الحميد المكفهر ووجوه الجميع التى تضحك خلفه.
رفضت راوية ركوب الباص ما دام فيه عبد الحميد، دفع الشباب بعبد الحميد خارج الباص وهم يحاولون تجنُّب إغضابه، فقط قالوا له أنه لا يمكنه البقاء لباقى الطريق معهم تأدبا واحتراما لرغبة زميلتهم راوية.

fb/mashro3pdf

نزل عبد الحميد من الباص حانقا غاضبا، لكنه لم يفهم لم فعلت راوية ذلك!
كان يريد أن يتحدث إليها فقط، قرر أن يلحق بالباص ويدخل البنك، فى النهاية هم لا يملكون البنك، وهو يجب أن يخبر راوية أنه غنى، وأنها أميرته وسيتزوجها رغما عن أحمد الذى رحل وتركها، ورغما عن مدير البنك الذى فصله من العمل، ورغما عن زملائه الذين دفعوه خارج الباص دفعا حتى كاد أن يقع بوزنه الثقيل أرضا.
وصل عبد الحميد إلى البنك وقد سبقه الباص بنصف ساعة على الأقل..
كانت راوية قد أبلغت مدير البنك والأمن، واستعدت لقدومه..
كان يكفى أن تقول:

- عبد الحميد قادم ليثير المتاعب غاضب لصرفه من العمل، عملاء البنك سيرهبهم بهيئته المشعثة وصوته الغليظ، أشياؤه فى صندوق لم يتسلمها، رفض الرضوخ لقرار فصله من العمل، لا وقت كاف قبل ساعة ذروة استقبال العملاء، يجب أن يتعامل معه الأمن سريعا ويحسم أمره حتى لا يعود.

استدعت راوية أمن البنك زملاء عبد الحميد السابقين، وبأمر من مدير البنك وقفوا صفا يحمون بوابة البنك، يحمونها من عبد الحميد ويمنعونه من الدخول وسط العملاء والموظفين.
داهمته فرقعة أحزمتهم، تكالبوا فوقه، كانت كصدمات الكهرباء تنهال بصوتها على جسده تحدث صراخا جارحا قبل أن تحرق موضع سقوطها، كانت موجعة غائرة فى روحه، كان يجز على

fb/mashro3pdf

أسنانه راغبا فى الصراخ، الألم أثار فى قلبه سيلا من كلمات الخضوع والاعتذار، أراد أن ينتهى بأقصى ما يستطيع، حاول أن يعتذر لكن صوته لم يخرج كانت الأحزمة حانقة غاضبة ملتهبة سريعة ومتلاحقة.
كان الألم يتدفق مثل نار حامية، بين اللسعة واللسعة، فى تلك المسافة الضيقة اندفع خدر ما أمسك بروحه فاستسلم لانهمار الضربات.
تتابعت الركلات بالأحذية فى وجهه وبطنه وبين ضلوعه، استشعر المهانة والضعة، علت الصرخات الحيوانية وتقاطعت وتناثرت حوله، حتى كان لا يعلم من أى فم خرجت!
تحلق موظفو البنك حوله فى دائرة مغلقة، يراقبون ما يحدث بين مندهش ومؤيد ومشجع، يتناوبون قص سيرته وبلطجته لزملائه وإرهابه لراوية عصفورة البنك ودميته المحببة.
كانت راوية تقف بينهم تعيد حكى ما حدث من البداية من أول يوم أتت فيه، تحكى للواقفين عنه كأنهم لم يعرفوه يوما...
كان ينادى بصوت لا يسمعه غيره: راوية.. راوية أنا أحبك...
لم يكن صوته إلا صدى لوعة وحرقة فى قلبه..
جمعه عم محمد السائق من بين أرجلهم، جمع البقايا المتناثرة منه وضمه إلى صدره، وخرج به من الباب الخلفى ورقد به خلف صندوق القمامة الكبير بجوار المطاعم المجاورة للمبنى، تسابق عم محمد وعمال المطعم فى إفاقته بالماء ليرحل سريعا عن المدخل، وقف عبد الحميد منحنيا ربت عم محمد فوق كتفيه وأجلسه فى تاكسى، فى المقعد الخلفى ممددا، أوصى السائق به خيرا، دفع أجرته مقدما من جيبه ليذهب به سريعا إلى بيته.

fb/mashro3pdf

(8)

كان عبد الحميد يعرف أنه لن يستطيع، لكنه لم يكن يدرك أن اعترافه بالخوف سيريحه ويلقى عن كاهله عبئا هو أكبر من كل مخاوفه. نوبة من الغضب والبكاء قادته نحو فراغ سقطت فيه روحه، كانت روحه حبيسة غرفة معزولة، لا يسمع فيها صوته رغم ضجة الطريق، ألم بقائه حيا كان أكبر من خوفه من الموت، كانت لحظة أو قل ساعة أو ليلة طالت أو ربما قصرت.

جلس أسفل النافذة ظهره للحائط، ورأسه الضخم فوق كتفيه ملقى للخلف، رأسه كصخرة عظيمة سقطت بين جبلين، فمه مفتوح ولعابه يسيل يختلط بدموع وجهه..

من قال أن البكاء يريح! بعض الدمع حارق كاللهيب، لم أكن بكامل وعيى وكأننى خارج هذا الجسد أراقبه.. لا أحتمل العودة فيه، روحى تتبخر.. جسدى يحرقها.. تنسلخ منه، الحياة عبء على جسدى يلفظها وترفضه، خيار الموت أرحم لى من قهرى على الحياة .

أريد أن أموت، لم أدفع بنفسى للحياة والآن أنسحب منها... أريد الانسحاب منها.. أريدها أن تعتقنى، لا أريد البقاء فى عالم ليست فيه راوية...

أمسك عبد الحميد بحبل خشن سميك وعقده عقدات متتالية، وربط طرفه البعيد بعمود الستارة فوق النافذة، عقد نهايته على شكل دائرة كبيرة، لتكفى رقبته الغليظة وتسع رأسه الكبير، ما إن أدخل رأسه فى الدائرة، وأحكم ربطتها حول رقبته، حتى انهار جالسا على الأرض، لم يستطع.. لم يجرؤ.. يداه ممسكتان

fb/mashro3pdf

بالحبل الملتف حول رقبته، تنغرز أظافره فى باطن كفيه ولا يقوى على الحركة... قدماه الكبيرتان لم تستطيعا حمله.
أردد مثلك يا أمى، كلماتك التى لا أدرى لها معنى تريح قلبى:
- "إنى تذكرتك يا ربى فاذكرنى".
لست مثلك يا أمى نقيا مؤمنا، لكننى أكرر ما حفظته عنك، ليت قلبى مثل قلبك، كنت طاهرة ربما لهذا ما احتملتك الحياة، أما أنا فالحياة تلهو بى.
أريد الموت.. ولكن حتى الموت لا يريدنى.. لست ممن يطلبهم اليوم، يدفع بى للحياة ثانية، يردنى.. لم يكتفِ منى بعد، يريد المزيد من التشفى قبل أن يلقانى.
تلك اللحظات عُدت منها حين تذكرت صوتك يا أمى.. كنت دوما تقولين: "إن الله هنا موجود وحالا وفى تلك اللحظة.. فى هذا المكان معى حاضر وشاهد".
أشعر أن بداخلى خواء، بداخلى هواء، بداخلى لون واحد البياض.. لا شىء. تحاملت على يدى وقاومت عناد ورفض جسدى واتصلت بوردة، أيقظتها لتأتى إلىّ.. فى تلك الساعة من الليل، لم أجد سوى وردة أستغيث بها من نفسى.
- يا وردة تعالى إلى حالا.. أنا أحتاجك هنا.
- سى عبد الحميد ما لك؟ عبده.. عبد الحميد...
كان عبد الحميد يبكى فى صمت، وكانت وردة تسمعه فى صمت ليس كصمته، تعرفه وردة طفلا كبيرا، ضخم الجسد، غائر العينين، قبيح الوجه، لا أصدقاء ولا أقارب، ولا قطة فى البيت ولا أنيس، فقط قلب كقلب عصفور، وذاكرة كورقة شجر محفور عليها كل الألم الذى لا يُنسى.

fb/mashro3pdf

ظل الهاتف بينهما معلقا كحبل موصول لا يحمل لها سوى أنينه، ولا تملك له سوى الصمت. قالت بتوسل:

- أنا سآتى إليك.. أنا خادمتك وردة يا سى عبده.. لا تفعل شيئا يفجعنى فيك...

ترك عبد الحميد الحبل ملقى من النافذة يتدلى فوق حافتها، كانت الدائرة المحكمة تنتظر عنقه المكسور ليرقد بداخلها، الآن خاوية، تأمل العقدة والحبل السميك الخشن، تأمله مليا، ترك لنفسه برهة ثم ألقى به من النافذة فارغا.

ربما لم يحن الوقت بعد. أغلق النافذة واستدار بوجهه نحو حائطه الرمادى، كان قبيحا ملطخا بالصور والبراويز وبقع الطلاء المتقشر

فوق الحائط بمسمار صغير تتشبث رزنامة ورقية ملصقة فوق كرتون مقوى، توقف عن سحب أوراقها منذ زمن، ربما منذ العام الماضى أو الذى قبله، تسلمها من البنك الذى يعمل به، وما حاجته لتمزيق أيامها ورقةً ورقة والأيام كلها بداخله ممزقة.

يجاورها برواز كبير يحيط قطعة مخمل أسود مطرزة، حفرت فوقها بخط عربى بارز آية الكرسى بخيوط السيرما المذهبة، كانت قطعة من أستار الكعبة المشرفة التى تكسوها وتتبدل كل عام فى احتفال سنوى مهيب يحضره أمراء ووجهاء وشيوخ، الكسوة القديمة تتخاطفها الأيدى ويحظى بها ربما الأقرب.

فى الجانب الآخر من الحائط لوحة مشغولة بخيوط الكانافا الدقيقة، فتاة إسبانية بخصر دقيق ترقص رقصتها الشهيرة، بفستانها التقليدى زاهى الألوان ذى الكرانيش، تمسك فى يدها

fb/mashro3pdf

منديلا حريريا أبيض، يراقصها شاب بقميص حريرى أخضر، اللوحة شغلتها أمى بإبرتها وصبرها، كانت حرفتها التى أتمت تعلمها فى صباها.
المشهد التقليدى للمرأة الجالسة فى هدوء ببكرتى التريكو وإبرة الكانافا فى يديها ظل يلاحقنى لسنوات تلك التى تعمل وعقلها شارد، ورائحة كرائحة حزن أمى تغلفه لم أستطع أن أزيح لوحتها، ولم أستطع إلا أن أحب الفتاة الإسبانية ولكننى كنت أكره المنديل وأكره الشاب الذى يراقصها فى اللوحة بحذائه المميز وظهره الممشوق... لطالما ذكرنى بمصارع الثيران.
ساعة خشبية كبيرة عتيقة الطراز تحتل منتصف الحائط، تلك التى تخفى فى بطنها عصفورا يغرد، تخبئه لساعات، ما زالت تعمل فى صمت وما زال العجوز يخرج لى مغردا ولو لمرتين يوميا، ليذكرنى بأن العمر يمضى وأنه باقٍ فى عمله، رغم أننى كسرت أبواب عشه وبندول ساعته.
تجاور الساعة صورة الرئيس حسنى مبارك يرفع العلم فوق أرض طابا المستردة، صورة مطبوعة، لا يذكر عبد الحميد إن كان هو من علقها أو متى أو لماذا!
ربما فعلت ذلك وردة، كعادتها تستر عيوب الحائط والدهان، كم من المرات تشاجر معها بسبب ما تلصقه فوق هذا الحائط!

- هذا الحائط لأمى يا وردة، هذا الحائط مقدس بالنسبة لى، أمى ما كانت لتعلق فوقه صورا غير صور أسرتها... يا وردة أنا أجد ذكرى أمى هنا.. لا تحاربى ذكرى أمى، أنت تدفعين بصورتها خارج عينى بزحام

fb/mashro3pdf

الصور والألوان، أحيطيها بالفراغ لأراها كلما نظرت للحائط.

بفارغ صبر ودون أن تنظر إليه تجيبه وردة وهى تنظف له طاولة طعامه:

- حاضر.. يا سى عبد الحميد.

استسلم بمرور الأيام لتجاهلها وتبعثر إلحاحه عليها، وربما اعتاد خليط الألوان وازداد تقديره لحيلها العشوائية، التى تخفى بها عيوب الحائط المتهالك بنشع المياة وشقوق الجدران.

كانت تلصق أوراقا وصور مجلات عرائس، دعايات صالونات التجميل، صور فنانى الجيل الجديد وربما القديم إن أحبتهم... يوما بعد يوم صار الحائط لك يا وردة افعلى به ما شئت...

إلى جوار صورة الرئيس والعلم غلاف لمجلة السينما والفنون، ثبتتها وردة بشريط لاصق أسود فوق كرتون مقوى، ثبتتها بعناية، عنوانها الرئيسى: "وداعا عبد الحليم حافظ ٤ أبريل ١٩٧٧"، ثم صورة مبروزة بإطار ذهبى أنيق للرئيس الراحل أنور السادات مكللة بالشريط الأسود، يرتدى بزته العسكرية.

أبقت لعبد الحميد بعض الفراغ، إلى اليمين صورة أبيه وأمه فى زفافهما، كانت أمه جميلة ترتدى فستانا أبيض يلف جسدها الرقيق، بدا اللون الأبيض فى الصورة القديمة مصفرا، كان فستانها بسيطا من الدانتيل المطرز، وطرحة العروس فوق رأسها تاجا من النور والبهاء، كانت حسناء ذات وجه بيضاوى، شعرها أسود طويل لـمّاع، معقود فى ضفيرة ثخينة بشكل دائرة خلف رأسها، يداها تمسكان بذراع أبيه وتتشبثان

fb/mashro3pdf

به، بأصبعها خاتم من الألماس يضوى، وفى عينيها كحل عروس أسود بهىّ.
وكأنه كان هناك بينهما يسمع الضجة والزغاريد وأصوات الفرح والبشر، والأكواب تتوزع والأطباق تمتلئ.. والأفواه لا تكف عن الكلام والضحك...
وجه أبيه يملأه البشر والفرح، يحيط عروسه بذراعيه، كانت تمسك بيديه فوق خصرها وتبتسم، تأمل فرحة أبيه تأملها مطولا، ترك لعينيه برهة تتجول فى أعماق أبيه.
لم يلتق أبى بأمى قبل الزواج أو يتعارفا، كان والد أمى يتناول عشاءه مع أحد أنسبائه فى بيته فى حضور عم والدى، واتفق الاثنان على زواج أبى بأمى، كان الحب بين الشباب عيبا يخزى العائلات، وكان من الفضيلة ألا تكمل بنات العائلات تعليمهن، لهذا كان الزواج واجبا وترتيبا عائليا.
كان يجب أن يبدو كل شىء وكأنه قد تم بالمصادفة، كانت تلك العزائم التى تقيمها بيوت العائلات للإعلان عن بناتهن تكلف الكثير، لكنها كانت تثمر فى النهاية، وتأتى بالزوج المطلوب.
فى الزيارة التالية زارت بيت أمى جدتى أم أبى، ودخلت أمى عليها لتقدم لها الحلوى، خجلت أمى وتعثرت وكادت تسقط الصينية من يدها، أحنت رأسها واعتذرت منسحبة خارج الغرفة، لم يكن مطلوبا منها أكثر من ذلك. كان هذا كافيا ليبرهن براءتها وانغلاق دنياها على أبويها وإخوتها وعائلتها.
عندما عرفت أمى من جدتى بارتباطها الوشيك بأبى بكت لا تدرى لماذا.. ربما لفراق بيتها، وربما خوفا من القادم الذى لا تعلم!

fb/mashro3pdf

كانت أمها تطمئنها وتقول لها.. يمكن للحظ أن يطرق بابك وتحبى قسمتك ونصيبك بعد الزواج. وكانت أمى تحب من نصيبها أن يرضى أهلها عنها.

محمد كان اسم أبيه، وكان اسم جده عبد الحميد، سمى عبد الحميد الصغير تيمنا بحظ جده السعيد، كان جده يحمل لقب بك، كان ثريا بالصيت فقط، تاجر من الأعيان، ينفق سعته ليبقى لقبه بين الناس عبد الحميد بك.

كان محمد فرحا بعروسه الصغيرة، اسمها زينب والزينب نوع من الشجر جميل الرائحة وجميل المظهر.

شارب أبيه الأسود النابت، مرسوم فوق شفتيه لوهلة بدا له مبتسما، عيناه راضيتان، كان موظفا حكوميا له راتب ثابت، يدفئه أول كل شهر، أثبت كفاءته سريعا فى عمله ما أتاح له كثيرا من السفرات والبدلات والمكافآت، كان مستقبله مشرقا وهادئا، عروسه الصغيرة ذات الستة عشر عاما نظرتها ناعسة حالمة مطمئنة.

فوق الحائط صورة أخرى لأبيه بالقبعة الباريسية، يقف أسفل برج إيفيل كانت هى الأخرى كبيرة الإطار، قضى والده سنوات الحرب هاربا فى أوروبا، حرب لا دخل لمحمد بها، سافر تاركا زوجه زينب فى مصر وحيدة وإن كانت فى بيت أبيها صابرة منتظرة الغائب أن يعود.

انتهت الحرب لكن محمد لم يعد، فى البداية كانت حجته الدراسة. ثم ترك الدراسة لكنه تشبث بالغياب، عاد بعد أشهر يبكى أباه الذى توفى فى غيابه فجأة، وبقى لعامين فى مصر يرعى بيته مكرها.. ثم عاوده الحنين للغياب فتعددت سفراته...

fb/mashro3pdf

ما كانت زينب لِتَجرؤ على منعه أو حتى مناقشته فى نزواتِهِ، كان يرسل لها بطاقة معايدة من كل عاصمة يزورها أو يمكث بها عاما على الأكثر، وربما يرسل لها صورته ببذلته الكلاسيكية وابتسامته التى لا تغيب.

فى مدخل إحدى العمارات العجوز كان «استديو بيلا» تزين واجهته فاترينة صور قديمة بالأسود والأبيض خلف زجاج يحميها، كانت لنجوم الفن وأبناء العائلات الراقية، أخذتنا أمى إلى هناك. كنت غضا سعيدا، تثيرنى التحضيرات، وتربكنى نظرات أمى، جلسنا فى الحنطور ساعة، لم أصمت فيها طوال الطريق، كنت أحكى لأمى عن أبطالى وأصدقائى الدمى الخشبية، التى أصررت على أخذها فى يدى، كان الحصان شابا عفيا يتأرجح بنا، حوافره ثابته، حدواته تدق أسفلت الطريق ولا يبالى بسخونته.

استوديو «بيلا» أقدم استوديو تصوير تذهب إليه العائلات مجتمعة كطقس احتفالى، ولأن التصوير لم يكن معروفا فى مصر حتى أدخله الأجانب، كان للخواجة «بيلا» زبائن يأتون إليه فى الاستوديو الخاص به فى شارع قصر النيل بوسط البلد، كانت منطقة وسط البلد كلها استوديوهات يملكها أجانب من الخواجات اليونان والأرمن.

كان للتصوير بعض الطقوس مثل ارتداء الملابس الرسمية؛ البدلة ورابطة العنق والطربوش، كان رفاهية تتمسك بها الأسر المتوسطة.

طلبت أمى من الخواجة صورة عائلية ذات خلفية مرسومة، كانت الاستوديوهات القديمة ترسم بلاتوهات التصوير ذات

fb/mashro3pdf

المساحة الشاسعة لتستوعب العدد الكبير فى الصور العائلية الذى قد يصل إلى 25 فردا، لكن صورتنا، صورة زينب، كانت لثلاثة أفراد فقط أم وطفلاها، وفيما بعد ستصبح لاثنين فقط..
قال الخواجة وهو يقف أمام آلته الكبيرة ذات الغطاء الأسود، بشعره الأشيب، قال لزينب وهو يدير أضواءه تجاه وجهها، ويشير بأصبعه لحوائطه المزينة بصور مشاهير الفن والسياسة:

- كل نجوم السينما المصرية عمل (تيست كاميرا) هنا فى الاستوديو.

كان والده ومصورو الاستديو هم من يحددون هل هذه الوجوه الجديدة تصلح للتمثيل أم لا. قال الرجل متفاخرا بعربيته الملحونة:

- ستوديو الخواجة بيلا، زبائنه من الملوك والرؤساء والباشوات..

تحاملت زينب على شفتيها ومطتهما فى ابتسامة مصطنعة مجاملة للخواجة:

- أريد صورة جميلة يا خواجة لأرسلها لوالد الطفلين فى أوروبا...

انشغل الخواجة مبتسما بإعداد أضواءه وزاوية التقاطه، وغرقت زينب فى سرابها المعتاد وصمتها.
أضاء الفلاش فى عيون الصغار كشمس مبهرة، ما زال عبد الحميد يذكر أثره فى عينيه كلما نظر للصورة أسفل زجاج البوفيه، بقيت محل ما وضعتها أمه بيدها، لسنوات لم يغير

fb/mashro3pdf

محلها... كسر زجاج البوفيه وما زالت الصورة تحته ملتصقة بالخشب.
استفاق عبد الحميد من غضبته ليجد نفسه وقد رفع عمود الستارة المعلق فوق رأسه ودفع به خارج خطافيه المثبت بهما فوق الحائط، ضرب عبد الحميد الحائط بالعمود المعدنى ضربة واحدة، كسرت زجاجا وأسقطت بروازا أو اثنين، ثم استهوته الضربات المتتالية فوق الحائط، وبدون صرخة تخرج من فمه ولا شهقة تشق صدره، ظل يضرب جسد الحائط وجنباته ضربات توجعه حتى هدأ وسقط على ركبتيه والعمود الساخن محل قبضته ما زال بيده.

fb/mashro3pdf

(9)

تأخرت وردة، مد عبد الحميد يده ليدير الراديو القديم، أمال الهوائى قليلا ليستمع لإذاعة القرآن الكريم، رفع صوت الشيخ، سمعه وهو يرتل: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا...".

كان الصوت يملأ أركان البيت، الحبل الخشن طرفه بالنافذة والعمود المعدنى إلى جواره وجسد عبد الحميد الضخم يهتز، يبكى ويستغفر.

كان ينادى وردة بصوت هامس مبحوح، يخشى أن يخرج من حلقه..

تنتظر وردة فى غرفتها نوم من فى البيت لتخرج لشقة عبد الحميد، الشقة المجاورة، يفصل بينهما حائط سميك مرتفع، تتلصص بأذنيها فوقه علها تسمع صوتا منه يطمئنها، تسمع صوت التليفزيون فى الصالون، وصوت سيدتها ناهد لكنها لا تجرؤ على الخروج أمامها من البيت ليلا، وماذا ستقول لها! هل تكذب عليها؟! كيف وسيدتها يمكنها اختراق لحمها وعظمها بعينيها، واستخراج أى معلومة تريد منها، بمجرد النظر فى وجهها، ربيبتها، لا تعرف لها بيتا سوى بيتها ولا أهلا لها سواها.

تخرج وردة إلى البلكونة تسمع صوت الراديو من شقته، تنادى بصوت هامس على عبد الحميد الراكع خلف نافذته، تلتقط ظله يتحرك فتطمئن عليه، وتنتظر نوم سيدتها. يطول انتظار عبد الحميد لوردة، يزحف الليل وما زال فى جلسته أسفل النافذة وعمود الستارة فى يده.. لا يجد زر النور فوق رأسه فيكتفى بظلال من أضواء الطريق.

fb/mashro3pdf

بعدما عاد أبى من سفراته الطويلة واستقر أخيرا وسطنا، وسكنت أمى إلى أنه سيعمر بيتها أنجبتنى، تقول أمى أننى كنت كالبدر فى تمامه، لكننى أرى وجهى قبيحا فأتعجب من وصفها، وأرى جسدى ضخما فأندهش كيف كانت تحملنى، وكيف كانت ترضعنى، أوقن أننى امتصصت رحيقها وصحتها وشبابها.

تشكو أمى لدادة حليمة أن أبى لا تزال تأتيه رسائل من أوروبا معطرة، ملونة بألوان الزهور، كانت أمى تخفيها أسفل السجاد، وتحرقها بعد حين حتى لا يراها أبى، كانت لا تعرف كيف تقرأها مكتوبة بلغة الأجانب ذات الأحرف المتشابكة المائلة، لم تفهم أمى يوما ما فيها من كلمات ولا ماذا حوت.. ولا من أرسلها... لكنها كانت تشعر أن بها شيئا مخيفا يهدد أمنها ولا يجب أن يراه أبى.

فى البداية كان يسأل عن البريد، كان يسأل أمى فقط، وينزعج إن قالت له: لا لم تصلك رسائل، لم يأت البوستجى ببريد لك.

كان يتشكك.. لكنه كان فى البداية يكتفى بسؤال أمى لم يسألنى يوما ولم يسأل دادة حليمة التى كانت تتعمد الفرار من وجهه، كان فظا معها، كانت تتسرب إلى المطبخ وأتسرب خلفها ما إن نسمع وقع خطواته على السلم قبل أن ينفتح الباب ويدخل، كنا نترك أمى معه وحدها..

شيئا فشيئا عرفتُ أن فى الخطابات خطبا ما، فأصبحتُ أخفيها عن أمى أيضا، وتسألنى ويسألنى أبى فأجيب بالصمت والشرود، لطمنى أبى يوما وقال:

fb/mashro3pdf

- أنت ورثت البلاهة عن أمك.. أين الخطابات التى يضعها البوستجى فى الصندوق الخشبى بجوار مدخل العمارة؟ عبده البواب قال لى أنه رآها بنفسه.

لما لم يجد منى ردا، لطمنى ثانية... ثم دخل غرفته لقيلولة العصارى التى اعتادها وتركنى. كان غاضبا مكفهرا يضرب أرجل الكراسى بحذائه، صد الباب وراءه وظلت عينى بالباب بعد أن صفقه.

كنت أجالس عبده البواب مع دادة حليمة كل ليلة، كانا زوجين يعيش كل منهما فى بيت منفصل عن الآخر، ما إن تنتهى من عملها فى المطبخ وتغسل الصحون وتجففها، وينام أبى وتطمئن إلى أن أحدا فى البيت لا يريد منها شيئا، تنزل من سلم الخدم وأنا خلفها بقدمى الكبير أُحدث ضجة فوق درجات السلم الحديدى الحلزونى الملتوى فتنظر إلىّ بلوم وتقول:

- شششششش.. ارفع حذاءك عن السلم .. عيب... أولاد البيوت أقدامهم خفيفة فوق الأرض.

كانت تخشى أن يرانا أحد.

فى مدخل العمارة كان لعبده غرفة يعيش فيها وحيدا، يبيت فيها فقط لكنه من الصباح وحتى المساء يجالس جيرانه من البوابين، ينتظرنا أنا ودادة حليمة ساعات المساء وربما بعض ساعات الليل الأولى، كانت دادة حليمة ترص له طعامه فى طبق كبير تغطيه بقطعة قماش بيضاء شفافة من الشاش النظيف، كنت أغفو فوق كنبة عم عبده الخشبية وأستيقظ لأجد نفسى وحيدا أبكى، تسمعنى دادة حليمة فى الداخل وتخرج لى من غرفة عبده البواب...

fb/mashro3pdf

لم تكن أمى تشعر بغيابى وإن شعرت نادتنى من المنور فأسمعها وأقول نعم بصوتى الجهورى، ويسمعها ويسمعنى الجيران...
تقول أمى:

- سيغضب أبى إن علم وسيعاقبنى ويعاقبك... لا تذهب يا عبده وتتركنى.

كانت تخاف أن تنادينى حتى لا يعلم أبى...
كنت أملّ جلسة أبى الصامتة، وهى تجلس إلى جواره تطرز مفرشا أو تدقق حواف منديل بخيوطها الحريرية الملونة..
كنت ألحق بدادة حليمة كل ليلة وكانت هى تحب اصطحابى فى يدها، حتى لا تسألها أمى ماذا كانت تفعل؟ وأين تذهب؟ ولماذا تأخرت؟
ولا أنا كنت أحكى لها، كنت أحب هواء الليل فى مدخل العمارة وحلوى دادة حليمة التى تعطيها لى ولا تعرفها أمى، وكنت أحب دور بواب العمارة ودكته الخشبية ومكانه الذى يتركه لى عم عبده، أحرس العمارة والطريق...
أحيانا كان يترك لى عِمته وقفطانه أيضا، بل وعصاه الخشبية التى كنت أدق بها الأرض لأخيف اللصوص والجبناء، هكذا كان يفعل وكنت أقلده حين يذهب لغرفته ويختفى هو ودادة حليمة.
ما إن لطمنى أبى حتى شعرت أن عبده البواب خاننى حين أخبر أبى أن البوستة تأتيه، وأن البوستجى يضعها فى الصندوق أو يسلمها لأمى. أدركنى الخطر.

fb/mashro3pdf

هذه الخطابات تثير ذعر أمى وتبكيها، أمى تخفيها أسفل السجاد وتحرقها، إن عادت وتسلمها أبى سيعود الحزن لأمى ثانية..
أمى لا تستحق كل هذا الحزن...
ما إن دخل أبى إلى غرفته فى ساعة القيلولة وقبل أن تأتى دادة حليمة وترانى، أسرعت لعبده فى مدخل العمارة وحدى، أخذت عصاه خطفا، وأخبرته بكلمات مبعثرة وأنا أجرى نحو السلم وقبل أن يلحق بى..

- إن أبى يريد عصاك سيؤدب بها دادة حليمة لأنها قالت له إن البوستة لم تكن لنا، وأنه لا تأتيه أى خطابات جديدة، وهو سمع من أحد ما أن خطاباته كانت بالصندوق...

أخذت العصا وصعدت وأخفيتها تحت سريرى واطمأن قلبى إلى أن عبده سيصعد خلفى يتحدث لأبى ويصلح ما أفسده، وهذا ما حدث..
لكن دادة حليمة فى اليوم التالى أهدتنى قطعة سكر فى الصباح وضعتها فى فمى وقالت لى:

- أنا لا أريد يوما أن أتركك... من سيطهو لك ومن سيعتنى بأمك لو ذهبت؟ لو علم أبوك يا عبد الحميد أين نذهب أنا وأنت كل ليلة، سيغضب من عبده ويطرده وسوف أرحل معه وأنت لا تريد ذلك...

قلت لها وأنا أكاد أبكى وتنفلت دمعتى رغما عنى: نعم لا أريد ذلك يا دادة..

fb/mashro3pdf

كنت أجلس فوق دكة عم عبده الخشبية لساعات ممسكا بالعصا خائفا لا أنادى دادة حليمة، أخاف من فقدها وأخاف من حزن أمى وأخاف من أبى وأخاف من اللصوص.
تقول دادة حليمة إن أمى صغيرة لا تعرف لوع النساء ولا حيل بنات الفرنجة وعمل شياطينهن، وأن أبى يدير رأسه مزمار وقع بيد إحداهن، ولذا فهو ومنذ عاد إلينا لا يملك نفسه، الشيطانة تملكه، لا ينام ولا يهدأ قبل أن يضرب رأسه فى الحائط أو يضرب أمى، أو يضربنى، أو يضرب دادة حليمة.
تقول دادة حليمة:

- كان البيت عامرا به قبل أن يسافر، كان ناعما ودودا لا يعلو له صوت، يتودد لأمك ويخفض صوته لى، ليّن الجانب لا يتشاجر لا مع الجيران ولا مع الشيطان، كان رجلا لبيته فقط، يعمل ليسعد أهل بيته، وقورا مُقدَّرا بين الناس، أما الآن فأقل القليل من كل شىء، حتى قدره بين الجيران ذهب بعد أن اعتادوا سماع صياحه كل ليلة وهو مخمور، وربما يسمعون ضربه لأمك أيضا، وإن كانت لا تخرج من فمها الآهة ولا العيب ولا الشكوى منه إلا لله..
- الغربة أكلت روحه، لم يعد كما كان قبل أن يذهب إليهم، هناك وراء البحار، هناك يسكن شر ما، شياطين لا نعرفها، علموه عاداتهم أصبح منهم، وجهه فقط بقى على حاله، عودوه السهر والشراب المُسكر والسباب وتكسير الزجاج كل ليلة حتى يهدأ، يستيقظ عصرا ويظل يحاول النهوض حتى تغرب الشمس.

fb/mashro3pdf

- أمك صابرة يا عبده لكن روحها تتألم، وهو سيرحل عنها على أى حال، هى تحاول أن تستبقيه بالحيل، لكن حيلتها قليلة، أمك هانم بنت ناس، وسيذهب على أى حال وبأى عذر ويتركها.

كان فى غضبه ينادى دادة حليمة يقول لها يا عَبْدة.. لا أدرى ألأنها سمراء البشرة أم لأنها خادمة عندنا؟! لا أعلم.

وفى رضاه القليل حينما يتذكر حضارة الغرب وتقاليده يناديها ماما حليمة، لا يزال أثر صفعته فى وجهها ويناديها ماما!!

كانت له بعض طقوسه التى لم يتخلَّ عنها بعد أن عاد من أوروبا، يقف إذا دخلت أمى الغرفة وإن كان غاضبا منها، ويأخذ ما فى يدها ويجلسها هى أولا ثم يجلس هو.

فى الصباح يقبل رأسها قبل أن يذهب، وعند عودته فى الظهيرة إن لم تكن إلى جوار الباب ليقبل رأسها استشاط غضبا.. وربما صفعها ثانية قبل أن تنتبه لخطئها.

يجلس إلى الطعام بكامل ملابسه وأناقته ويُلزمها بذلك، كان لا يأكل إلا قليلا، كان يأنف طعامنا ويذهب مساء للعشاء فى مطاعم وبارات وسط البلد، يذهب لأماكن لا نعرفها نحن ولا جيراننا البسطاء، يعرفها من أتى من ديار الغرب وأولاد الذوات...

لماذا كانت أمى تصبر عليه؟!

كانت دائما لها النصيب الأوفر من أذاه، تجلس صامتة خاشعة أمامه بينما يرفع حذاءه ويهوى به فوق فخذها وربما ذراعها، كانت ترتجف مع كل ضربة ولا تحرك ساكنا، ولا تتحرك من أمامه حتى ينتهى منها، بعد أن يخرج من الغرفة ترفع قميصها

fb/mashro3pdf

وترى آثار حذائه فى جسدها، تنادى دادة حليمة لتطببها وتترك عينيها تفيض وينهمر منهما دمع القهر والصمت.
فى يوم جاءنا سعيدا منتشيا، تقفز الفرحة من عينيه يمسك خطابا فى يده، كل الأخطاء ارتكبت أمامه ولم تغب بسمته عن وجهه، لم تستقبله أمى أمام الباب، ولم يجد غداءه معدا فوق السفرة، ولم يكن الطعام ساخنا، لم يهتم ولم يلاحظ أننى آكل بالمطبخ كعادتى كان البِشر فى عينيه..
توجست أمى وتبادلت النظر مع دادة حليمة، فأشارت إليها لتلحق به إلى غرفته.
أخبرها أبى أنه مسافر، فصمتت ونظرت إلىّ ساهمة، لم تجرؤ على الرفض، ولم يمنحها أبى الفرصة لتسأله لماذا؟ ولا إلى أين؟ ولا لمن تتركنا؟
بعد أن دخل أبى فى قيلولته المعتادة بعد الغداء، أغلقت أمى الباب عليه وتسربت إلى المطبخ، فورا خرجت من فمها شهقة ثم كلمات سمعتها دادة حليمة فانتصبت واقفة وتركت ما بيدها، بطرحتها السوداء وملامحها النوبية ارتدت عباءتها فوق جلبابها الأسمر، أخذت أمى وأخذت قميص أبى تحت إبطها، وأخذتنى فى يدها.
كانت فى صغرى تجلسنى أمتطى كتفيها، كنت ضخما فوق رقبتها وتتحملنى، كانت تقبل رأسى وهى تسير بنا فى الحوارى والأزقة، وتربت فوق كتف أمى كلما اقتربت منها. كانت أمى تبكى طوال الطريق، ذهبت بنا دادة حليمة فى جولة للمشايخ وولاة الأضرحة تلك التى يلجأ إليها اليائسون، فرَّقت الحلوى وبعض المال حول المساجد، تمسحت ومسحت منديل أمى

fb/mashro3pdf

بالضريح ذى الكسوة الخضراء والأنوار، تمرغت بالأعتاب وكحلت أعين أمى برماد القناديل، قبلت هى وأمى مقابض الأبواب وخشب المنابر..
وتكررت الزحفات المقدسة للأعتاب وكنت معهما فى كل سبت، كانت طقوس دادة حليمة تبدأ من الباب، إذ يتم طرقه سبع مرات على التوالى قبل الدخول بقدمين حافيتين والقيام بثلاث خطوات ثم الطواف قبل الدعاء، هكذا دربت أمى، كانت تقول لنسوة المقام إن أبى مسحور ونسعى لفك سحره.. كن يجلسن ويرقدن ويأكلن بذات المجلس، كانت رائحة الأرض خليطا من عرق النسوة ودمعهن ورائحة طعامهن..
تقول دادة حليمة لأمى:

- كل الأولياء الصالحين أحياء فى قبورهم، وهو سرهم الروحى، هو علم للخاصة لا يمكن لعامة الناس أن يطلعوا عليه.

كانت تسحب أمى ناحية موضع رأس الولى لتقبيل جبهته، وقبل أن تغادر تترك قطعة من ملابس أبى هناك، كانت أمى بين يديها كالخرقة البالية يأسها يقطر من عينيها.
اقترب موعد سفر أبى وازداد تصميمه على الرحيل، كان يزداد صلابة أمام دمع أمى وتوسلاتها، ويوما بعد يوم كنا نرى فى عينيه بريقا لم نره من قبل، وانفراجا فى أساريره ونهما فى شهيته للطعام لم نعهدها منه لسنوات، ورقة فى الطباع ليست من خلقه.
تقول أمى لا أريد سوى أن ينصلح حاله وتسكن روحه فى جسده وبيته. ذهبنا لامرأة من أقرباء دادة حليمة، جلست أمى

fb/mashro3pdf

أمامها لا أعرف اسمها، نادتها أمى بلقب الخالة، لم نزرها من قبل، ظلت تقرأ فوق رأس أمى وتتمتم بتراتيل وآيات ودعوات مبهمات حتى سقطت أمى وغابت عن الوعى.
وظللت أبكى خائفا حتى هزتها المرأة بعنف ولطمتها فاستفاقت وجلست، قالت المرأة إن أبى طاله سحر أسود من امرأة حمراء الشعر، سقته له فى كوب عصير، مغموس فيه شعيرات من جسدها. أخذت المرأة من أمى قميص أبى وطلبت مبلغا من المال، عجزت أمى عن تدبيره فاضطرت لاقتراضه من أم ميشيل جارتنا.
أم ميشيل تقرض كل الجيران فى ضوائقهم، ولمَ لا وهى تسترد مالها منهم مربوا زائدا عن أصله. كانت أقرب لنسوة الحى من أزواجهن وأهلن، تعرف أسرار البيوت وعسرات المعسرين، تصبر على تأخر سداد البعض ولا تصبر على آخرين فتفضحهم بين الجيران، ويعلو صوتها كل يوم وتهدد بتقديم الكمبيالات للشرطة، ولا تفوّت يوما لا تفعل فيه الأفاعيل معهم حتى تسترد مالها وفوقه فائدتها.
كبر مالها وكبر معه بطن ميشيل ابنها، كبر من ضوائق وحاجات الناس، مات أبو ميشيل وتركها تربى ولدها وحدها ومعها مبلغ من المال لا بأس به ضاعفته فى سنوات، كانت تقرض المحتاج لأى غرض: تكاليف علاج أو سفر أبناء، أو شوار عروس، وحتى ضوائق نهايات الشهر المعتادة كانت تيسر حلها بمبالغ صغيرة، كانت لا تدع مناسبة إلا وعرضت خدماتها وإن كان مأتما أو طلاقا. كان الجيران يحبونها ويكنون

fb/mashro3pdf

لها شعورا بالفضل، فليس أعظم عند النساء من تحقيق أحلامهن وتفريج كروبهن وإن تكبدن فى سبيلها شهورا من الدين.
ذهبت مع دادة حليمة لسداد المال للمرأة، وبقيت أمى مع أبى فى المنزل وحدهما، تحججت دادة حليمة بأنها ستزور أقرباءها وستأخذنى معها للهو معهم، وأَسَرَّت لأمى أن تهتم بأبى فى عزلتهما سويا، وكأننى كنت أنا العائق الذى حال بينهما وبين المسرات، دسَّت دادة حليمة فى شرابه قطعة سكر لاكتها أمى بلعابها قبل أن تعطيها لدادة حليمة فى المطبخ.. هكذا أوصتها الخالة، كانت كل ليلة تفعل ذلك.
سارت دادة حليمة فى طريق مترب متعرج يعلو ويهبط بنا، ويدى فى يدها تغنى لى بصوتها الأجش ولهجتها النوبية:

أسمعنا مرة مرة وحاتنا عندك تسمعنا مرة
الدنيا تبقى ما فيها مرة
والكون يلالى يلالى بهجة ومسرة
حن فى عمرنا الشايفينو مرا
وإن قلت لا لا هم واستمرا
***
إن درنا نشكى وين نشكى ليكا
وين نلقى دنيا تجمعنا بيكا
ما قلت بتجينا يا حليل مجيكا
وان ضاع عمرنا محسوب علينا
***

fb/mashro3pdf

إنت البتنهى وإنت البتامر
إن درت نشقى نشقى وإن قلت نصبر
زى الفراشة فى سمانا تهطل
نادر وجودك وجودك فى الدنيا يندر
***
نحنا المشاعر جنات حبيبة
دنيتنا راحة وعالمنا طيبة
دايرين عيونك تصبح قريبة
عشان كل حلوة فى الكون نجى.

كان غناؤها حلوا حزينا، ما زلت أذكر شجن صوتها وحنينا ما كان يقطر من عينيها، دخلنا بيت المرأة، كانت فى نفس جلستها بنفس ملابسها، وكأنها من يومها لم تتحرك ولا لقضاء حاجة، سألت عن أمى فأخبرتها دادة حليمة أنها مريضة.
قلت لها: لا أمى ليست مريضة... فقرصتنى دادة حليمة فى فخذى.
هذه المرة كان البيت هادئا بلا زوار غيرنا، جلست دادة حليمة تحكى للمرأة حكايتها وكيف أتت إلى مصر.
كان كلامها غريبا علىّ لكنه فسر لى الحزن العميق الذى أراه أحيانا فى عيونها والاتشاح بالسواد طوال الوقت، وحبها لأمى والتصاقها بها أكثر من عم عبده البواب.

fb/mashro3pdf

(10)

ما زالت دادة حليمة تحتفظ فى صدرها بمفاتيح دارها التى تركتها أثناء التهجير فى الستينيات، سكنت للمرأة تروى لها حكايتها وعبد الحميد يلعب إلى جوارهما بقطعه الخشبية الملونة.

حكت لها باكية عن الانتزاع مما ألفته، والنأى غصبا عن الأهل والدور التى تربت فيها..

تنهدت دادة حليمة وقربت جلستها من الخالة تلاصقت ركبتاهما فى ود وأنا ألعب حولهما:

- ربما غرقت قريتنا مع القرى التى التهمتها بحيرة ناصر لا أعلم ولا أريد أن أعلم...
- أيام بناء السد العالى قلنا نضحى ونفقد أراضينا والأيام جايه بالخير الكثير لنا ولأولادنا.. كما قالت الحكومة...
- هُجِّرنا ولم نر شيئا من الخير بعدها، أشتاق الصبايا بنات النوبة وجرجارهن، لباس الحشمة كان يدارى الأقدام ويجر فى الأرض، كان يشف ألوان الجلابيب ويبين الخلخال، الحجل النوبى لا يخفى...

تجيبها الخالة بحنين:

- الذهب كان يزين الصدور ويلمع تحت الشمس ويزيدنا الدلال والشعر المجدول، النوبية كانت عروس دايمة الشباب مثل النوبة خصبة نضرة لا تشيخ...
- كانت أفراحنا تطول ونرقص على دق الطبول، كان النخيل يتمايل ليلة الحنة، ننقش الحنة فوق أيدى وقدم

fb/mashro3pdf

العروس، ونعطرها بالروائح النوبية، كنا نعتقها قبل الزفاف بشهور وشهور حتى تكتسب رائحتها كما نريدها.

تسرح دادة حليمة وهى تنظر للأرض بحسرتها...

- كان عندى القرط البلتاوى الزمام بشكل الهلال من الفضة، وقرط الفدو هلال من الذهب، وكان عندى زينة الراس سلسال الرسان تدلى منه أزهار اللوتس والشاوشاو من الفضة كنت أعلقه على جانبى الرأس وينسدل إلى كتفى.
- وقت التعلية الثانية لخزان أسوان لا تغيب عنى، لليوم أفزع فى ليلى ويجف حلقى وأنا نائمة، لا أنسى المياه الغادرة ترتفع وتتدفق لا يقف أمامها شىء، كانت كطوفان نوح تبتلع كل شىء تعلو وتصل للأماكن الأعلى وتغيبها عن الأعين، كنست العنجريبات والأبراش، الدواب جرفها التيار على ظهورها، الجدران تشققت وتهاوت والأهالى يجرون ويولولون... المياه عدو قاهر باطش.

كان الرجال يعدون وسط أهل القرية، وضعوا النساء فوق تل من التلال البعيدة إلى جوار حاجيات أهل النجع التى تكومت ونحن إلى جوارها، مات كثيرون يومها.

تجيبها دادة حليمة:

- فى قريتنا القديمة ودارنا كان لنا حوش يضم نخلة وشجرة سنط تظلل فوق رءوسنا وتظلل طيور الدار السارحة، وكانت النخيل والأشجار تحاوطنا وتمتد

fb/mashro3pdf

حتى النيل وكنا نرى الأشرعة البيضاء للمراكب من بعيد.

ترد الخالة فى أسى:

- ما كان يمر يوم نشعر فيه بالجوع فى دارنا القديمة، أو فى دور أخوالى وأعمامى، كنا نأكل المبثوث فى الحليب الساخن، والبيض المقلى بالسمن ودفء الأهل والأحباب أذكره فى حلقى...

بعد العدوان الثلاثى، عبد الناصر أتى إلينا ساعيا، كنا أهله، بناء السد العالى كان مطلب الجميع للخلاص من الفقر والخزان.. كان الرجال يغردون "افرح يا أخى فالسد العالى آت بخيره... ادعوا لجمال وحيوا البلد الجديد".

- تركنا دورنا خاوية وخراب بعد العمار.. فوتنا وشوشات النخيل وزقزقات الزرازير...

قامت دادة حليمة وجلست إلى جوارى تحتضننى:

- جاءتنا الصنادل لتحملنا بحاجياتنا لأرضنا الجديدة.. مراكب كبيرة رست فى النيل تنتظرنا كانوا ينقلون فيها المواشى من السودان، كنا نجرى لتوهتنا وفراق أراضينا ودورنا، نجرى للبلاء والغربة "كان القدر والمكتوب ما عارفينه شنوو راح يكون"...

كانت ابنتى زينب حاملا فى تاسعها تمسكنى من جلبابى وتمشى ورائى، تطلع فوق السقالة للصندل.. ورجالنا طالعين بالسلم، تتكئ على ذراع زوجها وهو يساندها وكنت أكرر "فأل خير وبركة إن شاء الله تولدين فى الدار الجديدة".

بكت دادة حليمة بصوت متحشرج ملؤه القهر...

fb/mashro3pdf

- وكان الوداع مكتوب النيل أخذ بنتى زينب، كانت أعز القرابين وأغلاها، كانت زينب تصرخ محروقة بالألم وكان الصندل فى النيل يجرى بنا بلا توقف، وما فى طبيب بيننا وزينب تولد بتعسر.. دارياها بستار، كنت أضرب صدرى عليها وادعو ربى وأقرأ لها القرآن الكريم، ودارت عليها النسوة وأبعدونى عنها خارج ستار الابراش.. كنت أدور برأسى يمين وشمال وأنادى على زينب، والجدات يطمئننى ويربتن فوق ظهرى المحنى بالخوف... ساعات حتى انفرجت ووضعت زينب بنية شبيهة البدر، وشالت زينب الحمى فى جوفها، كنا نصب من النهر فوق جسدها الذى يحترق بالحرارة وندعو، ساعات وهمدت زينب، كان صراخى وصراخ النسوة يهد النيل هد.. حتى الرجال بكوا معنا، وكأنهم كانوا يتحرقون للبكاء ويشتاقون لدمعهم، وجاءهم موت زينب بالعذر...

بكت دادة حليمة وأبكت الخالة وبكيت أنا أيضا لا أدرى لماذا! دفناها بالطريق، لا نعش ولا محفة، بقيت فى أرض غريبة وحيدة كالنوبة من دون أهلها، وغطيت قبرها بالحصى الصغير الأبيض، السماء انطبقت فوق صدرى وغار البراح ورحت أكفى وجهى بالتراب وأولول عليها...

بنيتى يا بنية
شابة ولا شابة تحاكيها
ولا طولها ولا معانيها
شابة ولا شابة تحصلها
ولا طولها ولا خصايلها.

fb/mashro3pdf

أيام وماتت بنيتها التعيسة الفقيرة وراءها، لا حلية ولا بسمة تكفيها والهم بالقلوب، ذبلت عروقها وروحها حتى ثديى الشايخ لقمته فمها ما نفع يعيشها، تركتنى للعَدِيد عليها بعد أمها..
يامه خطفنى الطير برياشه
وأبوى على الديوان ما حاشه.
وصلنا كوم أمبو، وصلنا أرض صخر لا نبت ولا شجر ولا ظل، أرض تفيض منها صفرة الصحارى.
الجنة الموعودة التى وهبنا ناصر والحكومة لنخضِّرها ونعمِّرها، استبدلنا دورنا بورقات مكتوب فيها رقم البيت والشارع، دورنا وأرضنا مقابل بيوت الحكومة حددت مكانها بالحجارة وشيكارات الأسمنت والخشب، بيوتنا علب حديد سقفها واطئ تفح فى وجوهنا نار.
النوبة الجديدة علب أسمنت بكوم أمبو سكنها من سبقنا من أهلنا، تركنا قرانا تنعق فيها الغربان وسكنا العشش وأصبحنا نعتاش على المعونات من الحكومة، عاصمتنا نوبتنا الجديدة صارت مركز ناصر، كان الأهل يتحسرون ويبكون دورهم وأنا أبكى بنيتى التى دفنتها فى الطريق.
حين كفت دادة حليمة عن عديدها الطويل جاوبتها صاحبتها بآهاتها ونحيبها، كن جالسات محلولات الشعور بأثوابهن السوداء يتمايلن بعديدهن مبحوحات الصوت والصدر.
قبلت المرأة المال من يد دادة حليمة ووعدتها أنها ستحل أزمتنا، وتعيد إلينا أبى ليُقبل قدم زوجته ورأسها وينصلح بين يديها.
لكن شيئا من هذا لم يحدث وبقى أبى على حاله حتى موعد سفره...

fb/mashro3pdf

يومها اتجه أبى نحو الباب وقال لى:
- فى غيابى أنت المسئول عن البيت وأمك.
قالها وهو ينظر للحقيبة فى يده ويدفعها للخارج متعجلا.
تبعته وتشبثت بساقه حاولت إقناعه ألا يذهب، كانت أمى تبكى، قبَّل رأسها، وطلب منها الدخول إلى البيت حتى لا يرى الجيران دموعها، قال وهو يفتح باب المصعد:
- لم تعد طفلا ابق بجوار أمك.
دخل المصعد وأغلق الباب خلفه ونزل به المصعد، كنت أراه من الباب الزجاجى وهو يهبط كان ببذلته الباريسية وأناقته المعهودة، ما إن تحرك المصعد حتى أدار لنا ظهره. كان يتعجل الرحيل عنا. عدت إلى الشقة وصفقت الباب ورائى، فانغلق محدثا صوتا عاليا فزعت منه أمى.. كادت دمعة تنزلق من عينى زجرتها فعادت من حيث أتت.
هجرنا أبى وسافر وترك لنا دَيْنا ثقيلا لم يعلم عنه شيئا، واضطرت أمى لبيع قطع من فرش البيت لسداد المستحق عليها لأم ميشيل، خوفا من أن تفضحها أمام الجيران.
فى الصباحات القريبة كان خوفى من فقدها هى أيضا يكبر معى، كانت أمى تصمت يوما وتبكى يوما.
شىء فيها لم يعد بخير، كنت ألمحها تسكب الحليب عمدا فى الحوض ونحن بالكاد نشترى ما يكفينا، كانت تلقى بطعامها لقطط السلم، تقىء وتسقط أرضا وأنادى الجيران ليوقظوها، الجميع كان يعرف ما حدث، الكل كانوا يعرفون أنها وحيدة مهجورة... رغم ذلك تململ الجميع وانسحبوا عنها وبقيت أنا، كان علىَّ أن أنتبه لها وأراقبها، كانت تزداد شحوبا وهزالا

fb/mashro3pdf

ويزداد بطنها انتفاخا، كنت أصحو ليلا تفزعنى خطواتها تعدو للحمام تقيء حتى تنكفئ على وجهها غائبة عن الوعى.
"لم يعد لأمك سواك"، هكذا كانت تقول دادة حليمة. كانت تتلهى بالتطريز والحياكة أو هكذا كنت أعتقد كانت تبيع قطعها المشغولة، تساعدها دادة حليمة التى تعرف البيوت وأم ميشيل التى تريد دينها، كانت تعمل طوال الليل وتنام فى النهار، لم أعد أسمعها تبكى، حل صمتها محل البكاء.
كنت أجرجرها خارج الحمام وأنظفها، أنظف ملابسها وربما أحممها وهى راقدة على الأرض باردة الأطراف شاحبة تتشبث بيدى، أمشط شعرها المبلل وأجدله لها ضفيرة واحدة خلف رأسها كما تحب.
لم أكن أحسن تضفير شعرها لكنها كانت فى الصباح تراها فتبتسم.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(11)

إلى جوار البروازين الكبيرين فى صدر الحائط، ترقد الصورة متوسطة الحجم، التى التقطها الخواجة بيلا، ببرواز ها النحاسى الرفيع، صورة عبد الحميد صغيرا مع أمه وأخته، كان فى السابعة، أخته سعاد كانت جميلة، كدمية خزفية ناصعة البياض، لم تكمل عامها الثالث أبدا، كالملائكة أتت وكالملائكة ذهبت مبكرا.

كانت سعاد ترتدى فستانا أبيض دانتيل مطرز الحواف، وحذاء أسود لامعا صغيرا، تحته جورب شفاف أبيض، شعرها منسدل فوق جبينها فى غرة شقراء كأجنحة الفراش، عيونها صغيرة بحدقات مستديرة كعيون الملائكة، تحتضنها ذراعى أمه.

أتذكر أمى ببطنها المنتفخ كانت لغزا بلا حل، أسألها كثيرا من بالداخل تقول صغير يتحرك يأكل ثم ينام. أريد أن أراه، تطلب منى صبرا لا أملكه، كرة صغيرة تخفيها فى ملابسها أود أن أراها عارية، تمسك بكفى وتضعها فوق بطنها، أتحسس شيئا ما صلبا يتحرك، دقيق الحركة، ربما يريد أن يمسك يدى.

عشرات الخطابات أرسلتها أمى لأبى وتلغرافات، كل أسبوع تذهب لمكتب البريد ولا رد يأتيها منه، تقول ربما تغير العنوان لكن دادة حليمة تمص شفتيها وتقول:

- راح يا بنتى لسحره، الله يعوض عليكِ! تبكى أمى وتحتضن بطنها المنتفخ بذراعيها.

fb/mashro3pdf

أمى تلد فى البيت، أبى ليس هنا ليستدعى القابلة، ربما لو كان يعلم بحملها لبقى بيننا، تقول دادة حليمة إن الطفل ما كان سيبقيه.
خالتى نعمات تأتى ومعها أم السعد الداية، لا يسمحن لى بدخول الغرفة، أسمع صرخات أمى المختنقة، يطول انتظارى، يزداد صوتها إنهاكا، أبكى بحرقة وأتسمر فى الأرض أمام غرفتها.. أسمع صرخة طويلة مكتومة تعقبها كلمات الدعاء من خالتى لأمى، ينفتح الباب وتخرج أم السعد الداية للمطبخ.
كنت أريد أن أدعو لأمى والطفل المنتظر لكننى تلعثمت وتلجلجت وبكيت ثم بكيت وبكت دادة حليمة معى. وقفت معى على الباب تقدم رجلا وتؤخر الأخرى، لم تحتمل الوقوف إلى جوار أمى، تتذكر زينب ابنتها، انتشلنا من هلعنا صوت الزغاريد المجلجلة، ميزت آخرها بالسحبة الطويلة الرنانة لخالتى نعمات.. مسحنا دموعنا.. ابتلعت ريقى ونظرت للسماء فوقى لا أدرى لمن..
ما إن سمعنا الزغاريد حتى أمسكت بطرحتها السوداء ودخلت وراءها إلى أمى، كانت ترقد فى السرير شاحبة غائمة العينين، مبللة بالعرق والوهن.
قالت خالتى:

- بنت زى القمر باسم الله ما شاء الله.. انتفخت أوداجى. واستشعرت فرحة ممزوجة بالكبرياء والعظمة دون مبرر..

fb/mashro3pdf

جلست خالتى تحت قدميها والصغيرة بين يديها، مشدودة فى لفة بيضاء، وجه مدور وعينان مغلقتان ورأس به زغب أسود مبلل..
تنظر لى خالتى نعمات وتزغرد ثم تقول لى:
- أختك يا عبده كالقمر... أتطلع إليها... أمد لها يدى، حلمت بهذه اللحظة كثيرا، أريد أن أحملها كأننى أبوها، سأحملها قبله، هو ليس هنا، سأحملها بحرص، أحببت شكلها وأحببت نفسى وأنا حريص عليها، كانت صغيرة وهشة وتحتاج حمايتى.
- سنسميها سعاد..
نظرت لأمى وقلت: لها نسميها سعاد يا ماما..
قالت:
- سعاد يا عبده... وابتسمت لى ثم التفتت لتداوى جراحها بالنوم...
فى الاستوديو كان رأس زينب شامخا، مزهوا بطفليها، وطيف ابتسامة مبتورة فى أركان عينيها، التقطه الخواجة فى كادر صورته الفوتوغرافية، صورة بالأبيض والأسود، لأم وطفليها السعيدين يجلسون فوق أريكة أوروبية، إلى جوار سلم قصر رخامى مرسوم كخلفية للتصوير، مرسوم بيد ماهرة.
كان عبد الحميد فى الصورة يرتدى بنطالا قصيرا، يغطى ساقه جورب أبيض سميك وحذاء أسود فيرنيه لامع، يقف مستقيم الظهر بقميصه الأبيض ذى الأكمام الطويلة، شعره ممشط بعناية الى جانب رأسه، فرق شعره الذهبى كان واضحا غائرا كخطوط كفيه.

fb/mashro3pdf

أصرت أمه أن يرتدى الطربوش الأحمر، كان يخفى نصف جبينه، ارتدى بذلته ذات الأزرار وربطت له أمه بالجاكيت منديله الحريرى الأحمر، كان بلون الببيون المعقود فوق رقبته، كان الطربوش يضاعف حجم رأسه الكبير، لكنها أصرت، بكى قليلا ثم استسلم لرغبتها.

كانت أمه شاحبة ساهمة، شاردة النظرات شعرها مشتت، كانت لها سنة مكسورة أخفتها خلف فم مغلق، كسرت يوم سقطت فى إغماءة لا يذكر عبد الحميد سببها، لم تفلح مهارة الخواجة بيلا فى تثبيت ابتسامة واحدة لها للحظات.

أدار عبد الحميد الصورة فوق الحائط، وتأمل الحبل الرقيق المترهل، المثبت بالإطار من الخلف، مزقه ونزع الزجاج فوق الصورة، فصل الحاشية القطيفة الحمراء المهترئة، وألقى بالصورة وراء الكرسى المذهب الوحيد المتبقى من صالون أمه، الصالون المذهب الدمياطى الكبير الذى كانت تتفاخر بوزنه، كانت وخادمتها لا تستطيعان رفعه عن الأرض، ألقى بجسده الضخم فوق الكرسى.

ساعات مضت وهو ينظر للسقف العالى المرتفع، فى شقته التى ورثها عن أمه فى حى الزمالك، بيت أمه عتيق الطراز، عتيق الحوائط، جدران وسقف كالمحاكم أو كالمعابد، يتهاوى عبد الحميد فوق الأرض كمذنب تائب، مثبتا عينيه فوق بقعة داكنة محددة، يبتهل للجدران التى بالكاد تترك له ظلا قبل أن تنطبق عليه، ذهبت شمس الغروب، وما زال لم يتحرك، أحاط به الظلام... وعادت أشباحه تلهو حوله من جديد، كانت أشباحا حاضرة وحية، غضة ونقية الصوت والصورة، ظن أنها

fb/mashro3pdf

اختفت للأبد، منذ سنوات لم تعد تظهر، ظن أنها رقدت فى سلام ونسيته، أشباحه لم تكن تؤذيه، كانت تحبه لكنها لم تغفر له أبدا.

اختلطت فى أذنيه وعينيه الأصوات والصور، يوم وداع أبيه يبتسم لهم من خلف زجاج باب المصعد، أمه تبكى، صوت أخته تلعب، تغنى، تصرخ، تبكى، صوت الراديو غناء أم كلثوم ودندنة أمه معها، رائحة طهوها فى البيت، صوت باعة الطريق، صوت أمه العذب وهى تناغى أخته تهدهدها وترضعها، جرس الباب وعامل البريد يأتى بخطابات شحيحة من أبيه، أمه تهرول للباب بعدما سمعت نداء الرجل بصوته المحبب لأذنيها: "بوستة... بوستة.. بيت محمد عبد الحميد الراعى".

كانت دمى عبد الحميد الخشبية، أصدقاء طفولته ليس له سواها، عساكر وجنود وعربات وخيول، يطلقها ويقلد أصواتها، تلتقى وتتعارك، تنتصر وتنهزم، كرة عبد الحميد الصغيرة تطير من النافذة، تكسر لمبة الطريق... الجيران بالباب يشكونه لأمه... تنظر إليهم فى صمت... ينصرفون وكل له كلمة يخرجها من صدره الغاضب.. تنفث عنه: أين أبوه يؤدبه؟ غائب دائما! وأين أمه؟ ساهمة دائما شاردة خف عقلها.. من يوم تركها زوجها.

- لماذا تعتذرين عنى يا أمى!؟ لا تعتذرى لهم...
- يا عبد الحميد لا تلعب بجوار النافذة... لا تستفز مشاعر الجيران.. لا تجعل لسانهم يصيبنى...
- حاضر يا ماما...
- يا عبد الحميد لا تحمل أختك بجوار النافذة...

fb/mashro3pdf

- لماذا تبكى أختك سعاد.. أنا أعدُّ لكم العشاء...
- لم أفعل لها شيئا يا أمى.
- هى دائما تبكى وحدها... سعاد تريد أن تقف فوق الكرسى تطل على الطريق..
- يا عبد الحميد لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تؤذى أختك الصغيرة التى تحبك؟!
- يا عبد الحميد أنا نائمة.. اعتنِ بأختك سعاد.
- أنا أريد أن ألعب ياماما.. لا أريد أن أقف معها فى النافذة.. لا أدرى من تنادى...
- سأكون عند الجيران يا عبد الحميد.. لا تفسد شيئا.
- يا عبد الحميد صنعت لك جارتنا حلوى وفطائر..
- أين أختك سعاد يا عبد الحميد؟ لا أسمع لها صوتا.

بفزع تتخبط بين المطبخ والصالون والحمام.. تبحث بعينيها وقلبها يسبقها، تعدو بين أركان البيت.. تصرخ: أين سعاد يا عبد الحميد؟

- تذكرت.. طارت من النافذة.. ذهبت للطريق. سعاد تمتلك أجنحة يا ماما.

كنت أريد أن أرى أجنحة الملائكة التى تخفيها عنا.. هل يمكنها أن تحملها وتحملنى معها؟!

فى تلك الليلة ظلت أمه تلطمه فى وجهه بالفطائر والسيارات الخشبية والطائرات حتى أنقذته دادة حليمة من يدها وأخذته لبيت الجيران.

fb/mashro3pdf

(12)

كل ما تلا ذلك اليوم كان مظلما كجانب الباب الآخر الذى لا نراه، رغم أنه ملاصق لنا. الموت يحيط بنا ويمتلكنا ونتحرك داخله، لا نفر وأين نفر وهو يسرى فى العروق!
سافر الأب ولا يريد العودة، وضاعت سعاد، وسنوات من عمر أمه قضتها فى فراشها.
من غير المنطقى ألا يحمل أبى نعش ابنته، لم يكن طبيعيا أن يتركنى، أن يتركنا فى موقف مشابه دون مشاركة.. من قال له إننى أستطيع أن أحمل النعش وحدى!؟
لم تحتمل دادة حليمة المزيد من الحزن ورحلت لبيت أقربائها فى صمت وتركتنا، كنت سجين سجن أمى الذى فُرض علينا معا، أطعمها وأحممها وأتحدث إليها حتى لو كنت أشك فى أنها تسمعنى.
كانت جريمتى فى حقها أكبر منى، وكأن بعقلها جزءا قد انطفأ، أو كسر شىء ما بروحها غير قابل للإصلاح، كان الألم فوق قدرتها على الاحتمال فتُغيب عقلها عمدا، وكان غيابها فوق قدرتى على الاحتمال فأتشبث بها لأستردها، كنت أسمعها ليلا تبكى وتنادى شيئا ما، كانت كعصفور مريض ينكمش ويتضاءل ويرسو قاربها فى الجهة الأخرى يوما بعد يوم، كانت تقف فى النافذة تنظر للسماء طويلا وترسل لها بدعواتها للرحيل، كانت السماء لخوفى تستجيب لها ويزداد تسرب روحها وتلاشيها وراء كل ليلة تدعو فيها، ويزداد تشبثى بقاربها الذى أراه يمضى ويتركنى.

fb/mashro3pdf

كنت أنا وهى سجينى قارب لا يرسو، أحدانا يريد للقارب أن ينجو والآخر يرى فى غرق القارب حريته.
حكى عبد الحميد لأمه عن أشباحه، لكنها كانت أبعد من أن تسمعه، كان يبول كل ليلة ويبكى وهو نائم، لكنه أبدا لم يكره أشباحه، كان يعرفها ويعلم أنها لا تريد به شرا.. كل ما هنالك أنها وحيدة وحزينة.
أتت خالتى نعمات بطبيب إلى بيتنا ليعاين حالة أمى التى أصبحت تتدهور سريعا، كان أحد أقربائنا من جهة أمى...
الطبيب قاسم كانت له هيبة ربما لهيئته الرزينة وحقيبة الطبيب التى يحملها، يكبر زينب بعشرين عاما حضر زفافها هو وزوجته التى توفيت وتركته وحيدا بابنتين صبيتين.
كانت زينب رفيقة أخته فى مدرسة التطريز، تتردد فى صباها على بيتهم وتزور صديقتها، رغم ذلك فهو لم يرها سوى يوم زفافها على محمد، كان الفصل ومنع الاختلاط بين العائلات سائدا، حين دخل عليها غرفتها وهى مريضة تراجع للخلف خطوات، فقد هالة منظرها وما آل إليه حالها، كيف ذبل جمالها وانطفأت روحها.
جلس إلى جوارها ممسكا بمعصمها يتحسس نبضها، قال لدادة حليمة أنه يشعر بدوار فأحضرت له الماء والقهوة، لم يترك يدها طوال الجلسة الأولى ولا لجلسات تلت.
كان يشغلها بالروايات وأسطوانات الموسيقى والحديث عن السفرات وقصص التاريخ، كان أول رجل يقترب منها حقا وتستطيع أن تخبره بما فى قلبها وما تشعر به، حتى إنها باحت

fb/mashro3pdf

له بأحزان لم تعرف أنها تؤلمها من قبل.. كان يتأملها صامتا وهى تطرز بإبرتها لساعات ولا يملّ.
فى البداية كانت تحاول أن تُبقى بينهما تحفُظا يليق بامرأة متزوجة غاب عنها زوجها، ثم أدركت أن احتياجها له أقوى من كل تحفظ، حدثته عن أسرار بيتها وخذلانها، حكت له عن سعيها خلف المشايخ والأعتاب وخجلها وندمها من كل ما فعلت، حدثته عن رغبتها فى الموت، باحت له باحتياجاتها وحرمانها، كان يسمعها بصبر لا لوم فيه، ويدفئ جراحها بصمت وحكمة، كانا يتبادلان صمتا حميما، حب بلا صخب.
كان قاسم حكيما وحنونا وصابرا، تحمَّل أياما من عذابات زينب وانهياراتها لجلسات طويلة، كان موت سعاد ابنتها قاصما لصحتها، كانت تتعافى على مهل بين يديه، يرد لها الحياة ويدفع بالروح فى أوردتها شيئا فشيئا، وقبل أن يمضى وقت طويل أحبها، وصرح لها برغبته فى الزواج منها، فاتح أهلها وأهله، لم تكن زينب تنتظر موافقة أحد، وكأن الطوق الذى كان بعنقها قد انكسر وتحررت، أخبرته أنها لم تعرف الرجال قبله.
كان الطبيب قاسم ينتمى لأسرة عريقة رفضت ارتباطه بزينب رفضا قاطعا، كونها زوجة مهجورة، ما يحملها ذنب هجران زوجها لبيته وأولاده، فضلا عن حادثة ابنتها التى كانت فى رعايتها ولم تحافظ على حياتها، وبيدها صبى أيضا، وفوق كل ذلك كانت عليلة البدن لن تخدم قاسم أو ترعى بناته، البنتان كانتا تبكيان وتثيران العائلة ضد أبيهما ونيته كيف تحل من يتزوجها محل أمهما بالبيت وتتحكم فيه وفيهما! ستكون بمقام أمهما الراحلة ويتوجب عليهما طاعتها واحترامها، حتى أخته

fb/mashro3pdf

الصغرى التى كانت صديقتها فى المدرسة وقفت أمام تلك الزيجة وعارضتها، كان أشد ما جرح قاسم وخذله فيمن حوله أن أحدا منهم لم يفكر فى وحدته بعد وفاة زوجه، وأنه يحب زينب حقا وليس لأنها مريضتة التى تحتاج رعايته، وأنه ربما لو رآها قبل زواجها لتزوجها أولا، من الذى زعم أن الحب بعيد.

كان حبه لها مزيجا من الأبوة والبنوة فى آن واحد، كان يحتاجها أيضا، يحتاج صبرها وحرمانها واحتياجها له وضعفها، كان يشعر بالذنب تجاه مشاعر أسرته الغاضبة والحزينة، لكن حبه لزينب كان أقوى، ساعدها فى استرداد حريتها وتطليقها غيابيا بحكم محكمة، وتركها شهورا وابتعد، ربما لم تعد تحتاجه، أرسلت إليه دادة حليمة تعيده إليها وتخبره بالموافقة على الزواج منه، فى يوم الزفاف الذى أصر قاسم أن يقيمه لها ويدعو أهله لاصطحابها من بيتها، بكت لعبد الحميد ترجوه أن يسامحها ويأتى معها لكنه صفق الباب خلفها.

تزوجته ورحلت معه إلى قريتة التى عاد ليقيم فيها منذ سنوات بعد وفاة زوجه، بنى فيها عيادة ملحقة ببيته لممارسة الطب وعلاج أهل القرية، كان بينهم طبيبا رحيما حسن السمعة، يرتدى دائما ثيابا بسيطة لا يبدى تكلفا فى مشيته ولا جلسته، بشوش الوجه دائما حليق، يصافح كل من يلقاه بذات الترحاب والبشر، الحياة فى الريف كانت شاقة على قاسم وزينب، كان مرضاه يطرقون بابه فى أى ساعة من الليل أو النهار، كان وجهه وهيئته تمنحان الثقة فى مهارته وحكمته.

fb/mashro3pdf

كانت زينب تحظى بمكانة خاصة فى قلوب أهل القرية واحتراما يليق بزوج الطبيب الذى يحبونه، نالت شيئا ما لم تعرفه قبلا بعد سنوات من امتهانها وقسوة الحياة عليها، لم يكن قاسم ثريا، حياته لم تكن مترفة ولكنه كان مستورا أدخل الأمن لقلبها، أهداها سلاما. لا عجب أن زينب أحبته، أحبت فيه رحمته.

كان حبه لها وحده سبب شفائها، كان حبا ناعما لا صراع فيه، لا قلق ولا شك ولا غيرة ولا حرمان، عانت زينب كثيرا لاسترضاء عائلة قاسم وبنتيه، كانت تُعامل منهم بإهمال وازدراء، أخته تتحاشاها والفتيات يقاطعانها، لكن حبها لقاسم كان أعظم، كان يصر أن يناديها بلقب الهانم.. زينب هانم حتى أمام أهله وبناته والضيوف، وحتى فيما بينهما نادرا ما ناداها باسمها مجردا، فى الصباحات التى لا يعمل فيها يمكث معها منهكا راقدا، كانت تخشى فقده وترجوه أن يخفف عن نفسه، كانت تقبل يديه صادقة وكان يقبل رأسها صادقا.

ظل عبد الحميد يردد لخالة نعمات:

- خانتنى أمى هكذا رأيت أنا، ولن أسامحها مطلقا..

صفقتُ الباب خلفها ونسيتها. بعد سنوات اتصل به دكتور قاسم وأخبره أنها تحتضر وتطلب أن تراه، وأنها تتدهور سريعا لكنه لم يستجب لتوسلاتها، لم يسامحها إلا بعد أن ماتت وزار قبرها، قال بعد أن أصبحت إلى جوار سعاد أسامحها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(13)

كان قياس حذاء عبد الحميد مثارا لسخرية أقرانه، وكف يده يطلقون عليه كف الفيل. فى صفه يجلس فى الخلف يحتل مقعدا كاملا وحده، مكان اثنين له وحده، لا يسع جواره رفيقا، أقرانه يتجنبونه ويبتعدون عنه، يخشون كفه الغاشم ورائحة البول التى لا تغيب عنه.

كان عبد الحميد قد حرم أمه من زيارته، سافرت مع زوجها الدكتور قاسم ولكنها ظلت تراسله وهو يرفض الرد عليها، أرسلت الوساطات بينهما ترجوه مرات ومرات لكنه كان يزداد عنفا وشراسة فى كل مرة، ولم يعد يشعر بأهمية أن يعبر لصورتها عن ألم فقدها، سنوات وهو يكتفى بالنظر إليها كل صباح معلقة فوق الحائط، فقط ينظر إليها ويقرأ لها الفاتحة، وكأنها بالفعل قد ماتت وحضر عزاءها.

يوم حفل عيد الأم أصر الأولاد أن يرتدى عبد الحميد لافتة ترحيب بالضيوف أمام بوابة المدرسة، مكتوب عليها: كل عام وأنت بخير يا أمى.

كلما دخلت أم أحد رفقائه وقبلته فى رأسه احترق فى حلقه شىء ما، ظل عبد الحميد صامتا حتى نهاية الحفل ثم وضع اللافتة جانبا بوقار وسلمها لمدرس الفصل واستأذن للذهاب للذهاب إلى الحمام.

fb/mashro3pdf

ظل عبد الحميد يقيء ويبول ويبكى لساعات، ولسوء حظه تبعه أحد الأولاد متنمرا به، ضحك الولد منه وهو ينادى رفاقه، وأخبر عنه الصبيان فتنمروا عليه وعلقوا فوق ظهره لافتة كتب عليها:
" الفيل عبد الحميد".
كانوا يتضاحكون، عبد الحميد كريه الرائحة، الذى يأكل ولا يشبع، يسرق طعامنا ويبكى ويبول كالأطفال. أمسك عبد الحميد بواحد منهم، ظل يضربه حتى كسر أنفه، وسمع صراخه كل من فى المدرسة ومن فى الطريق ومن تحت الأرض ومن فوق السماء.
تلك حادثة لم تتكرر ثانية، ولكنها أسست لحق عبد الحميد الطاغى فى طعام الأولاد حتى وإن لم يطلب، وحقه فى الحمام منفردا طوال وقت الفسحة، بل ووقتما يشاء، يخلى الأولاد له الطريق للصف أو للحمام ويتركونه حتى يخرج وحده.
لم يتركه الأولاد وشأنه سرا، كانوا يلقبونه بالعرص عبد الحميد، سمعها أول مرة من ضحيته الأولى الذى كسرت أنفه يوم عيد الأم. ألقاها هامسا من وراء ظهره وهو يبتعد مستترا وراء الأستاذ محمد الناظر، ثم سمعها مرات ومرات تطير إلى أذنيه من خلف الباب وهو يبول فى دورة المياه.

- لماذا أنا عرص يا خالتى نعمات؟!
- دول أولاد كلب لا يعرفون التربية يخشون منك ومن قوة يدك، ويغارون منك. وسأشتكى لك منهم يا نور عين خالتك.

fb/mashro3pdf

- لا ياخالة يمكن ينسوها لحالهم.. إذا اشتكيت لأستاذ محمد الناظر سوف يضحك ويكررها أمام المدرسين ويضحكون مع بعضهم ويسخرون منى، أنا لا أريد أن أبقى وحيدا.. ولا أريد أن أصبح عرصا.

ما حدث أن الأولاد لم ينسوا وصارت الكلمة لقبا لعبد الحميد لصيقة باسمه.

وكأنما سبقته النبوءة، كان فى مقابل طعامه يضرب من يجتمع الأولاد عليه ويقررون تأديبه، وفى مقابل الصحبة يسرق السجائر من غرفة الأستاذ محمد الناظر ويحتفظ بها لمن يستحق.. لكنه لم يكن يدخن أبدا. لم تكن أمه سترضى له أن يدخن.

الأمهات ينتظرن عودة أبنائهن بعد المدرسة بالطعام والدفء، وهو يسير إلى بيته وحيدا جائعا. ربما يجد عبده البواب فى مدخل العمارة فيجلس إلى جواره يشاركه طعامه وينام فى غرفته يذكرون أيام دادة حليمة وطعامها، أو يصعد لبيته يجلس وحيدا يسامر صمت الجدران الطويل...

اعتاد الأساتذة أن يكلفوا جسده الضخم بمهام كبيرة، كان يضرب الجرس كل يوم، الجرس المعدنى المعلق فوق عمود معدنى، كان ثقيلا من الصلب بداخله كرة صغيرة مربوطة بحبل طويل سميك، كان يهتز بدنه الضخم وهو يسحب الحبل، وإن انخلع باب أو أرادوا تغيير سبورة خشبية أو تغيير ترتيب المقاعد الخشبية الثقيلة فى الفصول، كانوا لا يجدون غيره يستعينون بقوته. كان هو أول اختيار دائما وربما الوحيد!

fb/mashro3pdf

فى أيام الأمطار الشديدة كان عبد الحميد يكلف بفتح مصارف المياه والبالوعات فى الأرض وغلق البوابات فى الحوش.
لم يكن يمانع فى سحق كبرياء أحد الأساتذة ليُضحك عليه الأولاد، شاهين أكثر الفتيان تنمرا على أستاذ أحمد عبد اللطيف، ملأ جيوب عبد الحميد بالحلوى والسجائر، كان شاهين أكثر الأولاد ثراء وصيتا، يأتى بسيارته الفارهة يقودها السائق لتقف أمام بوابة المدرسة طوال اليوم الدراسى تنتظر.
الأستاذ أحمد عبد اللطيف كان من أتعس ضحايا عبد الحميد، كان صاحب إعاقة مستديمة يتمايل فى مشيته لعرج فى إحدى ساقيه، أغضب شاهين وأثار غيظه، ظل عبد الحميد يسير خلفه مقلدا خطواته لأسبوع كامل حتى رحل عن المدرسة، وقيل إنه لم يعد للتدريس ثانية أبدا.
كان يقف أمام باب حضرة الناظر يحرس له الطريق، لا يدرى لماذا كان يطلب منه ذلك لكنه كان يطيعه، فى المقابل كان الرجل يتغافل عنه، حين يأكل فى الفسحة من كانتين المدرسة أكواما من الطعمية والحلاوة الطحينية بلا حساب، كان الأولاد يأنفون من كانتين المدرسة وقذارته أما هو فيجلس فى الداخل مع بواب المدرسة يلتهم ما تصل إليه يده حتى يشبع، كان يحدث أن يمتنع عليه البواب ويرفض دخوله كشك الكانتين وكان عبد الحميد يكتفى بكسر قفل الباب ليدخل، يجلس أمام الكانتين راصًّا زجاجات البيبسى الفارغة أمامه وأرغفة الخبز وبقايا الأكياس هكذا كان يراه الجميع كل يوم، تلك كانت صورته التى لا تتغير، كانت رائحته مضرب الأمثال بين

fb/mashro3pdf

الفتيان، من أراد أن يسب صديقه يكفيه أن يقول إن رائحته كرائحة عبد الحميد.
كان الفتية يغازلون فتيات المدرسة المجاورة ويرسلون لهن الخطابات من فوق السور ويد عبد الحميد تلقيها، يلاقون فتياتهم خارج بوابة المدرسة، وهو من يقف لكل منهم فى دوره حارسا، الفتيات كن يكرهنه وكان بدوره يكرههن أو ربما يبدى تلك الكراهية العمياء لهن ويخفى غير ذلك.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(14)

تذكر عبد الحميد دادة حليمة والمرأة السمراء وسحرها الذى لم يفلح فى إبقاء أبيه، ولم يفلح فى إحضار الغائب ولا فى جلب الحبيب.
سنوات بعد رحيل أبى وأمى تأخذنى فى يدها وتزورها، تعود بالرقى والأحجبة والبخور وتنفق سعتها، ولم يرجع الغائب ولم يعد الحبيب!
ذهب عبد الحميد لدادة حليمة، كحاله حينما يتعب وتضيق به الأرض، يعود لأحضانها ويتذكر كتفها الواهن الذى حمله فى صباه وهو الثقيل، والفم الذى قبله وهو القبيح، واليد التى كانت تطعم وتضرب كأم حنون.
كانت تعيش فى بيت أقربائها بيت فى تلك الحارات الخانقة، الذباب لا يتحرك مُثقلا ببطنه، يفضل الطعام على حريته، والأولاد حفاة نصف عرايا يتصارخون حول صنبور مياه فى الشارع، يستحمون فى بركة يلهو بعضهم فى طينها، رائحة طهو مُبَهر فى الصباح تثير قىء عبد الحميد، الجدران تنشع وتنز زيتا أسود، مدخل البيت مغطى بملاءة مثبتة بمسمار فى الحائط، رفعها ونادى ثم دخل من دون انتظار...
كان يعرف أهل الدار ويعرفونه، كان سخيا يكرم مربيته دادة حليمة، كلما زارها، تعثر فى حاجيات وأوانى ألمونيوم وحلل كبيرة وصوانى نحاسية، أثار ضجة لم توقظ أهل الدار رغم انتصاف النهار ..
كانت نائمة أيقظها، فزعت ثم تذكرته...

fb/mashro3pdf

وقص حكايته عليها، كانت قد نسيته ونسيت حكايته... يهش عن وجهها الذباب اللحوح. نظرت إليه باستعطاف وقالت:

- خلصنى يا ولدى.. المرض يأكلنى والألم ما يخلينى ساعة فى راحة..

أريد أروح لأمك يا عبد الحميد أتوحشها.. لم يعد لى أحد هنا، أولادى رحلوا ومَن حولى لا أذكرهم، أجوع أياما ويأكلنى المرض حية ببطء... عظامى طريت وصرت أحتاج من يخدمنى، ولا أحد يتحملنى، تنادينى أمك يا عبده كل ليلة تدللنى كما فى أيامنا الخوالى. تقول لى: "سمارة حنى لى كفوفى". حقى عليك يا ولدى أموت بكرامة كيف ما عيّشتك بكرامة..

بكى عبد الحميد وانتحب، نظر فى وجهها المتغضن اليابس وجسدها النحيل كعود جف، ربتت فوق رأسه وقبلت عينيه ورقدت للخلف، ونظرت لسقف الغرفة الواطئ..

بكف واحد فوق وجهها كتم أنفاسها المتقطعة الهزيلة، لم تقاوم ولم تفتح عينيها فى وجهه، انسلت الروح منها سهلة كقطرة ندى أخيرة عالقة.. كدمع الصبار فور جرحه، تنز بيضاء سائلة ثم تجف.. سكنت.

رفع يده عن وجهها وأغلق فمها الفارغ من الأسنان، تشمم موضع أنفاسها كانت طيبة، ذهبت طيبة، خرج عبد الحميد من الدار كما دخل ولم يشعر به أحد.

من يومها وكل ليلة تأتيه دادة حليمة فى نومه، زادت أشباحه واحدا، لا يتكلم يصرخ فقط صرخة بلا صوت، ونظرة صامتة تماما كتلك النظرة فى عينيها وهى ترحل، نظرة شكر وامتنان.

fb/mashro3pdf

(15)

يوم التقى عبد الحميد وردة أول مرة، كانت لحظة عابرة، جمعتهما فى بير السلم، مجرد ثرثرة كانت لحظة ثقيلة كثقب فى جدار أسمنتى رطب، يحجب خلفه الشمس، تغيرت حياتهما بعدها.

وقفا يتهامسان فى بير السلم، دعاها عبد الحميد لبيته، لتهتم بنظافته وطعامه، وشيئا فشيئا أصبح بيته ملجأ وردة وملاذها، مفتاحه فى يدها طوال اليوم تنتهز الدقائق للذهاب والعودة الخاطفة، حتى إن كان عبد الحميد مسافرا أو هائما، لم تكن وردة تهتم أين يسافر أو أين يهيم ما دام المفتاح معها وفى يدها وهو سوف يعود لها.

بمفتاحه المعلق فى رقبتها منذ سنوات دخلت وردة البيت مهرولة نحو عبد الحميد، كان الفجر قد اقترب، وما زال ملقى أرضا تتحرك عيناه بين صورة أمه والنافذة، والحبل الخشن وعمود الستارة المعدنى بيده والزجاج المتناثر فى كل مكان حوله.

جلست وردة إلى جوار عبد الحميد على الأرض تحاول تهدئته، يبكى عبد الحميد فى أحضانها المشبعة برائحة الصابون ويده ترقد فى خشونة كفيها.

يقبل عبد الحميد يديها وباطن كفيها وأظافرها المتقصفة، يبتعد إلى غرفته ويطفئ الأنوار خلفه، تتبعه وردة إلى غرفته كان يلف نفسه بالغطاء السميك فى الصيف، وطرف ملاءته بين أسنانه، كان يعض عليه ربما تمتص عنه بعض الألم.

fb/mashro3pdf

لم أخبر أحدا يا وردة عن صوت عظامى التى أسمعها تتكسر فى نومى.. لم يعد الصوت يخيفنى ويوقظنى كما كنت فى طفولتى.. حتى سقوطى عن السرير ما عاد يؤلم ظهرى، كانت أمى تحيطنى بالوسائد وتلقى بالأغطية على الأرض إلى جوار سريرى حتى أقع فوقها، وكنت دوما أقع فى الجهة الأخرى من الفراش، فاحتارت أمى وألصقت سريرى بالجدار، فكنت أحلم أن الجدار وسادتى وأتمرغ فى أحضانه وألقى برأسى الكبير فوقه، وأناطحه بجبينى البارز حتى يزرق وجهى، وفى الصباح تراه أمى وتتنهد وتقول: "المتعوس متعوس ماله دوا".
خالتى تقول: الزمن يشفى كل جرح...
خالتى لا تعلم يا وردة أن شئيا ما من الأذى لا يذهب لا بالوقت ولا بالصمت..
أنا لا أنسى شيئا من الألم يا وردة، أنا كهذا الجدار مختوم فوق ذاكرتى محفور عليها لكننى لست متعوسا ما دمت هنا يا وردة، ما دمت أنت جدارى وخلف ظهرى.
اقتربت منه وردة كأم ملتاعة، تنظف وجهه وكفيه وبنطاله الملوث بالبول، كانت تعنفه برفق، تعلم أنه أسير قلبه الملتاع لفقد حبيبته راوية.
حكى لها عن راوية وأحلامه التى لا تخلو ليلة منها، وضحكة راوية، وغمازات راوية، وشعر راوية، كانت تشعر أن راوية تنمو كبيوض العناكب وستلتهمه يوما، أدفأت وردة وجهه فى أحضانها، وسكبت فى حلقه ماء الورد بالعسل، استسلم ليديها وتوقف بكاؤه، أغمض عينيه وترك رأسه لها، ورقد فوق كتفيها.

fb/mashro3pdf

لم يكن عبد الحميد مستيقظا ليحمى نفسه منها، كان مسلوبا.
لم تكن وردة تريد به شرا، هى فقط لم تسأله إن كان يريدها زوجة ويقبل بها، كان عليها أن تقرر ذلك وحدها، لم يعد ممكنا أن تبقى خادمته المخلصة للأبد.. وردة، لم يعد ذلك كافيا.
ساعتان واستيقظ عبد الحميد كان شخصا آخر، استحال جوهر الحياة فى جوفه إلى رغبة جامحة تريد أن تعوض ما فاتها، تبدلت رغبته فى الموت إلى جوع للحياة ونهم وعطش لما فاته منها.
نظر إلى وردة النائمة بين يديه، بإقدام لم يعرفه من قبل أقبل عليها أَخرس، لا حاجة به إلى الكلام، مفتون بما قدمته له، مندفع لا يدرى ما يفعل ولا كيف يفعل.
وكأنما خرج منه شخص آخر يعلم ما يريد، يفعل بوردة ما فعلت به وأكثر، كانت وردة غير مصدقة لما يجرى، لكنها كحواء تركت له كل الطرق والخيوط، واستكانت بين يديه...
كان يتجشأ حرمانا رأت فى عينيه أنه اليوم آدم، كأنه أجمل مشهد رأته فى حياتها المليئة بالرجال قبله، كان فاتنا مزهوا بكماله، بلا عقد ولا كلمات ولا صوت، يحلق طائرا خفيفا يهبط ثم يعود فيحلق...
كانت تمتص ثقل سنواته التى مضت بصبر، تركته يفعل ما يريد وهى تعلم أن جوعه لن يشبع وأن عبوره لن يكون سريعا وأن مفتاحه مثل مفتاح بيته قد أصبح فى يدها.
كما تأوى الطيور إلى أعشاشها سكن إليها عبد الحميد، وقد استبدل روحه الشائخة بروح مرهفة تحب الحياة.. كان ريقها شفاءه وصدرها أنيسه فى أيام جرحه الأولى...

fb/mashro3pdf

حين رقد فوق صدرها تذكر حين كان رأسه يسكن فوق قبر أمه، يذهب إليها فى مدافن الأسرة الخميس من كل أسبوع، ويبيت جوار قبرها، يتحسس تربتها الندية، يربت فوق موضع صدرها ولا يلحظه أحد من ساكنى المدافن وصغار الطريق.
كان كروح هائمة تأتى وتبيت ليلتها، ثم تذهب ما إن تشرق الشمس، ينظرون إليه وتتابعه أعينهم، وحش هائم، معفر مغبر لكن أحدا لا يلتفت إليه ولا يخاف منه.
- يا أمى أنا غريب بين الغرباء، لا صحبة ولا ونيس ولا زوج.. كنت أفتش عن أب أو أم فوجدت وردة...
قضى ساعات فوقها يحكى ويثرثر، ويقص عليها كل ما حدث فى حياته وبينه وبين راوية، لا داعى للحديث عن وردة، يعلم أن زواجه من وردة سيغضبها.
أمسك كف صبار يزرعه عموديا جوار قبر أمه، علمته دادة حليمة أن يدفن كف الصبار تحت الأرض ولا يرويه بالماء، ينمو الصبار فى أى تربة محرومة حارة، ولا يحتاج رعاية، كان ينتظره كل يوم حتى تخرج منه الكفوف الأخرى، عدة أشهر وتظهر الكفوف فوق الكف المزروع، تنمو ثمار الصبّار فوق الكفوف، كان يلعق أصابعه وهو يمسك الصبار حتى لا يجرحه شوكه ولا تعلق مرارته فى يده، كانت دادة حليمة تعصره عصرا حتى يتهتك لتكتحل بعصارته.
دادة حليمة كانت تقول:
أنا كتلك النبته التى تستطيع أن تتحمل أصعب الظروف وترضى بأقل القليل للعيش، وفى أى وضع تضعها فيه ترضى،

fb/mashro3pdf

تحيا بقطرات قليلة من الماء ثم تمتعك بأجمل زهرة ملونة.. زهرة الصبار.
كانت بعض الحمامات تطير حول عبد الحميد فنثر لها بعض الحب، وجلس يشاطرها الدقائق.
نعس كعادته وسحب النهار خيوطه ورحل، وما زال الحب بين يديه لم ينفد والحمام حوله يلتقطه من أصابعه، الحمام يكركر والصمت يلف نومه والطير فوق رأسه.
خرخرة ماء الخرطوم فى التربة المجاورة تحيطه وصوت أمه ينغنغ:

حمامه رصاصى.. يا حمام
وقفت على راسى.. يا حمام
وحمامه حمرا.. يا حمام
وقفت ع الرمله.. يا حمام
وحمامه نبيتى.. يا حمام
وقفت على بيتى.. يا حمام
يا حمام الغيه.. يا حمام
كلك ملاغيه.. يا حمام
يا حمام مغاغة.. يا حمام
وعاملك غاغة.. يا حمام

فوق قبر أمى يا وردة... لاحت لى خطوط وكتابات بانت لى عن بعد.. كخطاب مبهم.. كان الخط صغيرا ومنمقا، يتراقص كدخان، وكنت أشعر بصداع، أمسكت رأسى بين يدى، لأثبت عينى لتقرأ المكتوب، أجمع الحرف على الحرف وأبحلق، وأكاد لا أقرأ سوى كلمة واحدة مكتوبة تتكرر بخط مائل: المارد.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(16)

ينظر عبد الحميد من النافذة لرجال القهوة الذين يجالسهم كل مساء، أو يفرض نفسه على جلستهم. مقهى "عمر الخيام" أقدم مقاهى الحى، يجلس عم محمد بجانب جرائده ومجلاته بعضها باللغة الأجنبية، يعيد قراءة علامات الزمن فوق الورق المحبر بالرصاص، يقرأ ومع كل خبر تقف عليه عينه تكسو ملامح وجهه اندهاشة لا تخلو من بعض الشماتة فشلت فى إخفائها ملامحه الأوروبية، فالأعين زرقاء والبشرة خمرية احترقت من لهيب الشمس بسبب جلسته الطويلة أمام جرائده ومجلاته التى يشتريها زبائنه الأجانب من ساكنى الحى الراقى أو العاملين فى السفارات الأجنبية بهذا الحى.

جلساؤه جيران البيت أغلبهم من ذوى معاشات التقاعد موظفى الحكومة الذين تعودوا جلسة المكاتب الطويلة بلا عمل لسنوات، لم تختلف جلستهم بعد المعاش، صباحات وصباحات مرت عليهم وهم يتناوبون قراءة جريدة واحدة أو ملف واحد.

يلوكون خبرا أو خبرين بنفس الهمة التى يتشاركون بها فطورا مُتخِما، يتبعونه بأكواب الشاى الساخن والسجائر، ثم يصمتون وأعينهم فوق الساعة بانتظار موعد الانصراف، لا يملكون الانصراف قبل التوقيع فى دفتر الانصراف ولو بدقائق.

لم يشعر أحد منهم بغياب عبد الحميد الليلة، هو بينهم كل ليلة حاضر لا حضور له..

- لم أهتم يوما بالسياسة ولا بالأخبار.. أنا مثل أبى إن قامت الحرب سأهرب مثله.

fb/mashro3pdf

وما كان سيضيف إن بقى، كان فردا واحدا، إن مات من كان سيعرف عنه شيئا، ليتنى أعرف أين يعيش إن كان حيا، وفى أى بلد استقر بعد أن هجر أمى لكنت سافرت إليه، أعرف أنه لا يذكرنى فقد رحل منذ كنت صغيرا، عمر مضى.
ربما مات أو أنجب غيرى أنا وسعاد ويعيش سعيدا وسط عائلة جديدة، هو بالتأكيد لا يهتم بما يحدث فى العالم ولا فى مصر ولا فى سيناء ولا لى أو لأمى...

- وما يهمنى من كل الأخبار إن لم أجد ما آكله أو ألبسه أو أنام فوقه!

أنا أعيش حربى الصغيرة كل يوم، كل منهم يتذاكى ويحلل ويناقش وينتقد ولا يلتفت لحاله، ينسى أنه من الصباح للمساء يلهث وراء عيشته ولقمة عيشه، طوابير وزحام وضيق حال، تلك الأخبار تُلهيه عن حروبه الصغيرة لصالح حرب كبيرة لا شأن له بها.
كان الجالسون بقرب عبد الحميد خمسة رجال، أعمارهم متقاربة وذكرياتهم أيضا، الحاج سيد أكثرهم ودًّا لعبد الحميد، جلس إلى جواره يرتب صفحات الجريدة الحكومية، يبدأ قراءتها من الخلف أولا...
- صفحة الوفيات أولا لنعرف الواجب الذى علينا، من أتى دوره قبلنا يرحمه الله.. يا عبد الحميد المواساة فى العزاء أهم من المباركة فى الفرح.. فى الفرح الناس تنسى من حضر ومن لم يحضر لكن فى المآتم نذكر من جلس ومن وقف من بكى ومن انصرف قبل الختام..

fb/mashro3pdf

هاجمتهم أمراض الشيخوخة معا فى وقت واحد فى تزامن يتفق مع العمر الذى مضى، يجمعهم النسيان وحِدة الطباع وداء النقرس، خشونة المفاصل وترهل البطن.
العجائز يتشابهون، الملامح تقترب.. كلها حفر الزمن، يتشاجرون سويا كل صباح تدفعهن نسوة البيوت للصياح والسباب، شجارات النسوة المعتادة حول أسباب لا تتغير ولا تُحل: القمامة.. البواب.. زوجة البواب.. نور السلم.. فواتير المياه.. إصلاحات المجارى.. شجارات الأولاد...
تذوب خلافات الرجال فى المساء حينما يلتقون حول طاولة القهوة والراديو وقرقعة الشيشة، يلتفون حول طاولة واحدة وينسون نساءهم وأسباب الشجار والأولاد ولو لساعات المساء الأولى.
يتداولون الأخبار بينهم كل ليلة، ربما يعيدون الكلام نفسه، أمريكا والحرب الباردة.. إسرائيل وفلسطين المحتلة.. ليبيا والتجارة.. الإعارة للخليج والريالات والدراهم.. العراق وإيران والحرب المستعرة هناك.. كرة القدم الأهلى والزمالك...
ثم يتوقفون عند الغلاء.. الأسعار تلتهم كل شىء.. قلة البركة طالت الرزق والبيوت والعيال...
غضب الخالق وعلامات الساعة التى تقترب منا... الزمن الجميل الذى مضى وتركنا بالحسرة...
الرئيس يتحدث عن الإصلاح وتحقيق الاستقرار الاقتصادى وحماية محدودى الدخل.. الدخل الذى يقل وتتناقص قيمته يوما بعد يوم.. العيال وهمومهم الدروس الخصوصية والطلبات التى لا تنتهى.. نسوة البيوت ونكدهن وتمرد الأولاد.

fb/mashro3pdf

تأوه عم سيد وهو يناجى رفيقه أستاذ حمدى ويناوله كوبه من الشاى الحبر الغامق هكذا يحبه أستاذ حمدى.. سكر مضاعف ولون قاتم وكوب يبرد أمامه:

- ننام ونصحو على أخبار المليونيرات وما يفعلونه بأموالهم.. أراض تحاط بأسوار وأسلاك بين طرفة عين وانتباهتها، مبان تعلو وأدوار ترتفع بلا تراخيص، تجارات تهريب تنتعش أولها وأربحها تهريب الآثار..
- دعايات استهلاك لكل شىء وأى شىء جديد، أجبان وحلوى ملونة.. وأدوات طبخ مطلية، وزخرفة للحمام.. هل كنا بحاجة إلى كل ذلك؟

أنا يا عم سيد قضيت عمرى مدرس لغة عربية، أكاد أقسم أننى لم أرَ أسوأ من الدفعات العشر الأخيرة نطقا وتأسيسا وفكرا، التعليم الحكومى يتهاوى يا عم سيد أمام التعليم الخاص.. من يملك المال يتعلم أفضل، جيل لا يفكر ولا يقرأ...

فى السنوات التالية وسأذكرك إن بقيتُ حيا سيتخلى الشباب عن الكتابة باللغة العربية الفصحى وسترى بعينيك جيلا لن يفكر.. لن ترى أدباء ولا شعراء ولا أهل فكر، اللغة الأم يا عم سيد هى التى تنمى الفكر مهما اكتسبنا لغات غيرها تبقى اللغة الأم أيا كانت أساس التفكير، حتى إننى لا أرى أحدا يمر علىّ كما كنا نفعل مع أساتذتنا ولاء ولا حتى عرفانا بالجميل.. لا أطلب منهم شيئا.. فقط التحية.

fb/mashro3pdf

يضحك عم سيد حتى تظهر أسنانه المتكسرة وفمه الفارغ من الأضراس:

- أطفال غاضبون من الحياة، جيل حائر يا أستاذ حمدى لا تغضب..

يمضى الوقت بعبد الحميد يستمع للرجال وحكاياتهم، يتفاعل معهم بهز رأسه موافقا لبعض الوقت ثم يمَلُّ حديثهم فيدير كرسيه نحو شباب الدومينو.

أكواب الشاى الفارغة وقطع الدومينو المتراصة أمامهم، صوت أم كلثوم تغنى يتخلل رمى الزهر فى صندوق الطاولة الخشبى.

بين ساقى كل منهم لىّ شيشته يلتف حول ركبته، المبسم فى فمه يسحب منه الهواء إلى صدره لتكركر عروسه كما يسميها شاكر.

هى أوفى صاحبة وأصدق عشيقة، هكذا يقول عنها شاكر بسوقية لا تناسب اتقاد عينيه.

يشير شاكر لصبى القهوة ميدو كلما خبت نارها ليأتيه بجمرة وينفخ له فيها، يأتيها بـ"الولعة" ليشعل حماسها من جديد. رص الشيشة حرفة وكذا نفث دخانها بعد نفس طويل مكتوم، يخرج من الأنف محملا بهموم الصدر، يحبس شاكر أنفاسه يدير الدخان رأسه اللاهث فيهمد ويسترخى، الشيشة سامر الليالى..

صبى القهوة ميدو يحب شاكر ويخدمه بغيّة ومودة، الكل فى القهوة ينتظر شاكر، حكاياته وضحكاته، وحتى صمته الساهم أحيانا..

عبد الحميد لا يعرف الدومينو ولا يعرف الشيشة ولا الولعة، عبد الحميد لا يعرف كيف يجارى هؤلاء الشباب فى أحاديثهم

fb/mashro3pdf

عن الهجرة والعمل والأموال المكدسة فى الخليج، وفتيات الغرب المحترقات بنار الرغبة فى انتظار العربى الأسمر ساخن الدم.
لكل منهم حلمه، كل منهم يرى نفسه عمر الشريف أو محمد على كلاى أو أى مهاجر سبقه إلى الغرب حيث تتحقق الأحلام... شاكر كان قائدهم أول مهاجر بأحلامه من أرض البوار إلى أرض تنبت فيها الأحلام حيث تورق وتثمر..
كل شاب يعمل عملين وربما ثلاثا، شاكر أعلاهم صوتا، تخرج فى كلية الحقوق بتقدير جيد ثم أنهى تجنيده فى عام واحد بوساطات ملحة ليسافر، لكنه لم يفلح أبدا فى أن يجد فرصتة للسفر للخارج.
لا يريد شاكر أن يعمل بالخليج ليمتصه كفيل ويذهب شبابه مقابل ريالات ودراهم وإن كثرت بقيت معدودة، مال يكومه فى سنوات يقضيها مجمدة بلا حياة ينتظر بأمل أن يعود ليتزوج وينجب ويكرر دورة حياته التعيسة فى أولاد لا ذنب لهم، سوى أن أباهم لا حظَّ له ولد فى بقعة تعيسة من العالم.
لا يريد أن يعود بمروحة وجهاز تليفزيون محمول فوق سيارة سفر برى حقائبه مكبلة مكدسة بملابس لا حاجة له بها، كحال العائدين ممن يعبرون الحدود، ولا يريد أن يشيخ فوق كرسيه على القهوة كالأستاذ حمدى وعم محمد وزملائهم.
ينظر شاكر للشباب ويدير رأسه مشيرا نحو الأخبار، التلفزيون يعرض صورا بدون صوت، لا يريد رواد القهوة سماع الصوت، يريدون صوت إذاعة أم كلثوم فقط، الإذاعة تبث

fb/mashro3pdf

أغانيها حتى العاشرة مساء.. بعد العاشرة يذهب الكبار ومعهم عبد الحميد ويفعل الشباب ما يريدون بالقهوة والتليفزيون.

- يقولون نساء العراق جميلات، أبيّات، كن ثريات لا يقبلن المصرى، أخضعتهن وكسرتهن الحرب ضد إيران. يقول شاكر..
- نساء الخليج يتأبين على المصرى أما نساء الغرب فيتحرقن شوقا له.. هكذا يقولون..

يجيبه الأستاذ حمدى:

- استبدلت الثورة الإيرانية نظام حكم الشاه رضا بهلوى الموالى للغرب والمدعوم منه بنظام إسلامى راديكالى، والزعيم الإيرانى آية الله خمينى سعى لتصدير الثورة الإيرانية للدول المجاورة بما فى ذلك العراق...

الدافع للغزو العراقى لأراضى البلد المجاور هو الرغبة فى الدفاع عن بلدان المنطقة من تصدير الثورة الإيرانية لها، وربما يكون مجرد انتهاز فرصة ضعف إيران بعد الثورة لتحقيق المزيد من النفوذ والسلطة لصدام البطل لا مانع هذا لن يغير من الهدف... البطل صدام دافع عن الأنظمة العربية التى كانت تصفها القيادة الإيرانية بالأنظمة الكافرة والعميلة للغرب.. صدام البطل يحارب ضد أمريكا الشيطان الأكبر... والله أكبر وليخسأ الخاسئون.

يجيب شاكر بحماس:

- أى صراع يا أستاذ حمدى أو قتال عندما يندلع بين طرفين مهما كان الطرفان دولتين أو قبيلتين أو شخصين أو غيره، فإنه وبناء على منطق الحرب

fb/mashro3pdf

والقتال يكون الطرف الأكثر إمكانيات وقوة هو الذى يسعى للقتال والحرب وليس العكس، وإيران تمتلك إمكانيات أكثر بكثير من العراق، أنا لا أفهم على ماذا يتصارع حكام أحد أكثر مناطق العالم ثراءً بالنفط؟

العرب يرون فى صدام البطل الأشم حتى السعودية تراه بطلا وترسل له كل يوم ملايين براميل النفط مجانا ليواجه عدونا المشترك إيران الشيعية.. التشيع كفر بواح...

يستدير أستاذ حمدى ليواجه شاكر:

- إيران هى الخبث بنفسه وخطر على الأمة العربية الإيرانيون وحوش يحاولون السيطرة على العراق الآن ولهم فيه نفوذ حتى أن الاستعمار العالمى لن يصبح أمريكى فقط بل أمريكى وإيرانى.

يسأل عبد الحميد شاكر باهتمام:

- ما معنى راديكالى؟

لا يلتفت إليه شاكر.. ولا يجيبه...

يكرر عبد الحميد أسئلته ويلح عسى شاكر يهتم ويجيبه:

- هل سينتصر صدام البطل وحده، هل العرب سيساعدونه لينتصر؟

ينظر إليه شاكر.. ويقول لأستاذ حمدى:

- عبد الحميد يحتاج منك درسا فى السياسة وعشرين درسا فى التاريخ يا أستاذ حمدى.

fb/mashro3pdf

يضحك هو ورفاقه ويغوص شاكر فى عرقه يتمنى لو أنه لم يسأل شاكر شيئا...
يشير شاكر لرفقته بعينيه المتقدتين ويرسم بيديه خارطة حفظها جمهوره عن ظهر قلب من تكراره لها أمامهم، كل ليلة يرسمها كدخان حول رأسه.. خارطة أوروبا:

- سأرحل إلى هناك، حيث الدنيا نعيم والحياة مكتملة، أريد أن أعيش.

يريد شاكر أن يسافر إلى ألمانيا حيث تعيش صديقته بالمراسلة "كونستانس" الجميلة، يحلم بكونستانس حمراء الشعر وألمانيا كل ليلة معا، ألمانيا المقسمة شرقية وغربية التى توحدت بلا دماء، بلد الشعراء والفلاسفة والعنصرية المفرطة ضد المهاجرين، بلد كرة القدم وفريقها الذى يصل لنهائى كأس العالم بالتخطيط ودراسة الخصم.
يكمل شاكر حديثه لرفقائه بنفس الحماس وقد وضع شيشته جانبا:
- عودنا الفوز حتى وإن لم يبذل لاعبوه كامل جهدهم.. التخطيط يغنى عن التعب، لم يخلقنا الله لنتعب بل لنفكر، الأدمغة للتفكير الأدمغة خلقت بلا عضلات ولا عظام لحكمة ما، خير لك أن تكون ترسا صغيرا فى ماكينة كبيرة، تدور وتعرف ما تريد وأنت جزء منها خير من أن تصبح ماكينة كبيرة عاطلة لا تعرف ما تريد...
كان شاكر يتحدث عن ألمانيا وكأنها وطنه الثانى، وكأنه حصل على التأشيرة بالفعل، تأشيرة الدخول للعالم الأول، عالم المرسيدس وكونستانس الجميلة ونهر الماين.

fb/mashro3pdf

خمس سنوات وهو لا ييأس، تعلم مفردات اللغة الألمانية وبعض الجمل المهمة بجهد فردى، يتحدث الألمانية مع كونستانس ولو بركاكة تُضحكها، يعمل ويجمع ماله ويذهب لسفارة ألمانيا فى حى الزمالك بأوراقه كلما فتح الباب، يقف ساعات أمام السفارة حاملا حلمه الذى يزداد تشبثه به كلما مضت به السنوات وتمنعت..

تعبره الأيام وهو كما هو...

يقول عنه أستاذ حمدى "الواد الخايب عايش الوهم".. أنت كما أنت سنوات يا شاكر وأنت تحلم وستظل هكذا "محلك سر".

يوثق شاكر حضوره صباحا فى وظيفته الحكومية التى يضمن بها دخلا ثابتا ولو كان قليلا، يكفيه ألا يسأل أباه طعامه وسجائره، يهدر ساعة فى مواصلات طريقه إلى عمله الثانى أيا يكون...

مرة عامل محطة بنزين، ومرة مشرف فى مطعم وجبات سريعة، وربما بائع فى محل خاص لبيع أكسسوارات السيارات، وربما أدوات تجميل النساء وملابسهن، لا يهم.. المهم أنه يبقى ساعات فى مكان حتى يسلم ورديته لمن يليه ويتسلم منه أول كل شهر بضع عشرات من الجنيهات، وإن كان فى اليوم بركة يمكنه قضاء بعض الطلبات لأهل بيته ربما بمقابل أيضا.

يسترخى شاكر فى كرسيه خلف شيشته نافثا مع دخانه تعب يومه، ويحكى لأصحابه ويضحك بسخرية دامية من نفسه ومن نوادر يومه وزبائنه، لا ينبغى له أن يكف عن الكلام وإطلاق النكات، إن صمت قليلا ربما خرج له من طيات ذاكرته حلم تاه

fb/mashro3pdf

قد يلاحقه وينغص عليه ما بقى من ليلته... يتعس نومه ويبقى معه حتى الصباح.
يهمس شاكر حتى لا يسمعه الكبار:
- جاءتنى اليوم زبونة بدينة تبحث عن قياس لها فى قسم ملابس البحر، كان الثراء باديا فى وجنتيها وفخذيها.. يضحك رفاقه.
ما إن نظرت لها حتى اعتبرت نظرتى إهانة لوزنها المفرط لكننى لم أقصد إهانتها أقسم إننى لم أقصد، كنت خائفا أن تنحشر فى لباس البحر فى غرفة القياس الضيقة ولن نستطيع إسعافها...
ينفجر الشباب بالضحك... فى موجة لا تنتهى من تخيل المشهد.. تدمع عيناه من الضحك وهو ينظر لكرشه الصغير الذى بدأ ينمو فى غير اتساق مع هيكله... يربت فوق كرشه بمبسم الشيشة ويكمل: أنا أرى نفسى أما هى فلا...
بصوت ينخفض ويهمس:
الشابة ظلت تصيح وتطلب مشرفا أو مديرا لتشكونى له.. وترتج من الغيظ وتدق الأرض بكعب حذائها.. وأنا أعلق عينى باللحم المرتج. ولما دخل علينا بجديته وصرامته الأستاذ على المشرف وحكت له بانفعال ما حدث أخذ القطعة الصغيرة من يدها فورا وقال لها وعينه مكان عينى سنتصل بك فور وصول شحنة جديدة.. وضغط أحرف كلمة شحنة بأسنانه.. كدت أن أموت وأنا أكتم الضحك وأنظر لوجنتيها التى ضرب فيهما اللون الأحمر.
ضحك كل من بالقهوة حتى الكبار ومن يجلسون خارجها كان الجميع ينصتون لشاكر حتى وهو يهمس.

fb/mashro3pdf

كان شاكر يحلم أن يعمل بالخارجية فور تخرجه، سقط اسمه من المحظوظين، لا واسطة له، حينها قرر أن يتجه للصحافة لكن طريقها كان طويلا وهو لا يملك الانتظار، يرعى أباه وأمه وأخا له وأختا.
لا يطيق انتظار نصف شهر بلا دخل ليكفى حاجة أسرته، ومن أين لأبيه موظف المعاش أن يزوج أخته ويُتم تعليم أخيه، معاش أبيه بالكاد يكفى علاجه هو وأمه وإصلاح أعطاب البيت من وقت لآخر.
لا يحب عبد الحميد شاكر، لا يعرف كيف يجاريه، ولا يضحك لنكاته، عبد الحميد بجسده الضخم يشعر أن السخرية من جسد الفتاة نالته أيضا، يتمنى لو يستطيع الرد على شاكر بما يؤلمه، يتمنى لو كان ساعتها هناك فى محل الملابس الجاهزة لدافع عن الفتاة بضربة قوية فى وجه شاكر ومديره، يتمنى لو كانت الفتاة أكثر حظا ولم تحبس روحها فى جسد دميم عملاق، يشفق عليها ويشاركها آلامها وإن لم يلتقِ بها...

- شاكر لا أخلاق له ويستحق أن يظل محلك سر هكذا يعاقبه الله...

يتمتم عبد الحميد لنفسه فى همس محسور.

- شاكر يملك كل شىء ولا يعرف أنه يملك كل شىء، لديه عائلة، لديه أب وأم وإخوة، لديه جسد فتىّ ووجه تتمناه النساء، لديه أصدقاء يحملون همه وضحكة مجلجلة، ولديه جمهور كل ليلة يصفق له.. لديه كل ما ليس لى.

fb/mashro3pdf

شاكر يريد أكثر، يريد أن يُخرج النجم عن مساره، يريد أن يتمرد على مساره ويغير حياته، يمكنه أن يجد فتاته هنا ويمكنه أن يعيش بدخله القليل معها وحوله أهله ويقوم بدوره بينهم ويساعد أباه.

شاكر لا يعرف قيمة ما لديه، هذا كل ما فى الأمر.. يجب أن يفقد شيئا عظيما ليعرف قيمة ما يتبقى بين يديه..

يعود عبد الحميد ويلتفت نحو العجائز...

- كم كوب شاى تشرب يا حاج محمد فى اليوم؟
- لا أحصى على نفسى أكواب الشاى أيضا يا عبد الحميد.. يكفينى أن أعد كم علبة سجائر أشرب كل يوم...

بضيق يدير عم محمد وجهه عنه وينظر لشاكر. يقترب عبد الحميد من شاكر ويهمس له:

- هل تريد السفر حقا يا شاكر؟ أعرف سمسارا يؤجر قارب صيد من الإسكندرية. يُهرب فيه البضائع ويخفى فيه بعض الشباب الراغب فى الهجرة، ومن لا يملك أوراقا ولا مالا كافيا يدفع الباقى أهله هنا بعد أن يعمل ويرسل لهم، الهاربون لهم المغامرة والربح إن صمدوا...

لأيام ظل شاكر سارحا صامتا، يجلس وحيدا لا يضحك ولا يسامر أحدا وينظر لعبد الحميد ويتبادلان بعض الكلمات كل ليلة وأوراقا صغيرة تحمل أرقام هواتف لا يعرف سرها سواهما.

ثم اختفى شاكر عن القهوة أياما.. اضطرب حال أصدقائه يسألون عنه بعضهم ولا يجيبهم أحد، حتى أهل بيته لا يعرفون

fb/mashro3pdf

عنه شيئا، اختفى وترك بعض النقود لأبيه وأمه، هذا هو كل ما قيل عن شاكر ويعرفه أهل الحى...
ركب شاكر البحر متخفيا مختبئا فى صندوق بضائع خشبى رطب مبلل بملح البحر، قارب متهالك جمعه بعشرات الهاربين من القرى والمدن، هاربون مثله بأحلامهم، هل ابتلعها وابتلعهم البحر ويعود إلينا رفيقنا شاكر فى صندوق؟ هل يلفظه البحر كما لفظته اليابسة الغريبة وقبلها القريبة؟
سماسرة الموت يطوفون القرى والمدن المكتظة بالخيبات والبطالة، يجمعون غلتهم من نقود وأرواح هائجة فرت من موت بطىء ووعِدت بالنجاة، يزينون الجنة للحالم، يلوحون بالمخاطرة عرضا ويقبلها المضطر المحتاج، ونادرا ما يفلت منهم صيد وصل إليهم مختارا.
منذ غاب شاكر فى البحر البعيد، فى المياة الباردة خيم الصمت والحزن على الجلسة، وسكن الهم العيون، وخمدت نيران الولعة والضحكات، وكلل تاج من الهزيمة رءوس الشباب...
الأستاذ حمدى ينعى شاكر فى موعظة وداع كل ليلة، لم يجلس ليسمعها سوى عبد الحميد...

- كان الفلاح المصرى القديم قطعة من أرضه، قطعة من طين أرضه، لا يهرب منها مهما ذاق فيها من ويلات، لا يهجرها وإن أغرقه الفيضان وأحرقته نار الجفاف.. تناوبت عليه العصور ونالت منه الشدائد ولم يهرب من طين بلاده ورزق أولاده، إنها لعنة تطارد جيلكم، لا تفروا من أمكم.. الأرض أم.. وإلى أين تفرون!

fb/mashro3pdf

وجذوركم تضرب فى الأرض هنا، لمن تتركونها؟ للبوار؟!

ارتدى عباءة خليجية أنسته جلبابه الفلاحى، سرقت عيدان البخور السمراء الفرحة من جبين أرضه وقلبها وبعد أن كانت أرضه مفروشة باللون الأبيض قبل موسم جنى القطن، ذبل عوده وأصابته التخمة، واصفرَّ لونه كلون غيطان الذرة.

لم يعد الفلاح المصرى هو ملح الأرض الذى كان يضرب به المثل فى كل الحضارات، ضاقت سماء الوادى الصافية عليه، وتحولت الأراضى الخضر إلى ساحات من البوار، أصبح الفلاح المصرى الفصيح مسخا غريبا عن ترابه المقدس، لم تعد الفأس تقوى على الغوص فى عمق طينه...

وأصبح الكل "عواد" عواد الذى باع أرضه.. الذى كانت تُعيّره الثقافة الشعبية وحده بأغنية تضرب القلب وتدميه "عواد باع أرضه يا ولاد شوفوا طوله وعرضه".

بصوت تخنقه العبرة يقول صبى القهوة ميدو:

- اسكت يا أستاذ حمدى فأل الله ولا فألك، شاكر بخير وسيرجع ويحكى لنا.. ويضحكنا كعادته وتعود ليالى السمر والأنس.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(17)

- جواب من أستاذ شاكر... جواب من أستاذ شاكر...
كان ميدو صبى القهوة يمسك بالخطاب فى يده اليمنى وصينيته الصاج فى يده اليسرى، يدور بين رواد القهوة ليجتمعوا حوله، كان يصيح ويهلل فرحا، وجلس الشباب متحلقين يقرأون كلمات شاكر بتهافت ولهفة..
"أنا أطمنكم أنى بخير ومشتاق لصحبتكم، وأبكى بالدموع كلما تذكرتكم واحدا واحد، أحكى لكم حكاية سفرى، أنا ذهبت المكان المتفق عليه لمقابلة السمسار وتفاجأت بأعداد الناس المنتظرة تريد الخروج بالقارب والهرب لأوروبا.
وقفنا بالدور فى طابور لتسجيل الأسماء وتأكيد الحجز ثم ركبنا فى أتوبيسات باتجاه ميناء الإسكندرية وهناك تم تسكيننا مكدسين فى شقق بالقرب من المندرة، كنت مأخوذا بالرهبة والمغامرة ولا يمكن أن أتراجع مهما كانت المخاطرة، وبدأت عملية الانتظار المميت لمدة ثلاثة أيام...
فى اليوم الرابع بالليل تم تجميع مائتى شخص فى بيت واحد، لم يكن بيننا مساحة لوضع إصبع، ثم تكدسنا فى أتوبيسات لنصل الميناء، وتسللنا كاللصوص لعنبر سفينة مهجور فى الميناء، وبدأنا الخروج فى مجموعات من ستة إلى عشرة أشخاص إلى طرف الرصيف البحرى، كنا نزحف على بطوننا وننبطح أحيانا لتجنب الحراس وكان حولنا كلاب حراسة، كنت خائفا وكنا نهمس نطمئن بعضنا مذعورين.

fb/mashro3pdf

المائتا شخص تم نقلهم إلى مركب الصيد وأبحر المركب لمدة تسع ساعات حتى خرج من المياه المصرية إلى نقطة متفق عليها فى المياه الدولية.
كنا فى انتظار السفينة التى ستقلنا إلى ايطاليا سبع ساعات بانتظار سفينة الأحلام، كانت المفاجأة عندما رأينا مركب صيد أكبر من مركبنا بقليل بدلاً من سفينة الشحن المزعومة، وبدأت عملية نقل الركاب بدون سلالم أو حبال. كان المهربون يرمون ويقذفون الناس كما يرمون الحقائب والأمتعة...
بدأت عملية الإبحار بـ(وابور) الصيد كما يسمونه، وهو عبارة عن مركب صيد بطبقتين ويوجد به عشرون سريرا فى الطبقة السفلى التى كانت بدون نوافذ أو تهوية.
معظم الهاربين كانوا يجلسون على سطح السفينة، كان الإبحار ليل نهار بدون توقف بعد ربط قارب الصيد الأول بنهاية الثانى وأخذه معنا. أعضاء طاقم المركب العشرة، كانوا يقدمون وجبة طبيخ من الأرز والبطاطا والبسكويت والماء، لكن دوار البحر منع معظمنا من الطعام والشراب، أصابنا الوهن والتعب والعطش والجفاف...
بعد يومين من رؤية البحر على مد البصر بدأت التعرف بمن حولى، كان الشباب معى من حاملى الشهادات وأصحاب الصنعة، تآلفنا وكأننا فى سَرِيّة تحارب العدو الصهيونى خلف الحدود الإسرائيلية.. كنا نتشارك طعامنا وقصصنا وذكرياتنا وآمالنا، وحتى أغطيتنا حتى أننا بدأنا نساعد طاقم القارب، كانوا شبابا مصريين مثلنا يخاطرون بحياتهم ويجازفون بإلقاء القبض عليهم مقابل فرصة أفضل.

fb/mashro3pdf

كنا نتسامر ونلهو بأحاديث الشباب عن الفتيات فى الغرب، وكان بعضنا يداوم على قراءة القرآن ودعاء الله لنا ولهم بالنجاة من هذا الموقف العصيب، وكأن مصر كلها كانت معنا، تجدها فوق القارب يا عم محمد.. أعلم أنك تقرأ وتفكر فى مصر وتتألم أنت وأستاذ حمدى.

بعد إبحار خمسة أو ستة أيام بدأ الموج العالى وبدأ الرعب الحقيقى، لن أستطيع أن أصف لكم الرعب والخوف والبكاء والدعاء، كنت أقرأ التشهد قبل الموت المحقق الذى أنتظره فى كل لحظة.

كان القارب يرتفع على قمة موجة ارتفاع ربما عشرة أمتار، ثم يهوى بنا وتدخل المياه والجميع يبكى يودع ويستودع، لم توجد سُترات نجاة معنا على القارب ولا أظن أن سُترة النجاة كانت ستفيد مع مثل هذا الموج.

بعد العاصفة قرر قبطان القارب أنه لا يستطيع أن يحملنا بسبب تأذى القارب والمحرك الثانى، كان يجب أن ينزلنا وهو أيضا كذاب شرير، قال لنا أننا دخلنا المياه الإيطالية المحلية وكان الشاطئ بعيدا. طبعا نحن كنا سعداء بهذا الكلام ولم يخطر ببالنا أن تجار البشر يقتلون الناس بدم بارد، ولكن المعاناة خلقت بيننا شيئا من الألفة لم نذق مثلها من قبل.

تم سحب القارب الآخر المربوط معنا وهو نفس القارب الذى غادرنا به المياه المصرية، وكان نصف حجم القارب الرئيسى.

بدأ إنزال الشباب وامتلأ القارب بسرعة بالناس وحقائبهم، ولم يكن هناك مجال لأخذ طعام أو ماء، بقينا واقفين ليتسع المجال للجميع، قفز معنا ستة من طاقم السفينة وقرأنا الفاتحة بشكل جماعى.. لن أنسى

fb/mashro3pdf

أحرفها كيف خرجت من حناجرنا المشروخة بالخوف.
وودعنا القارب الرئيسى وبدأنا رحلتنا للشواطئ لإيطالية.
القبطان قال أننا سنصل الشواطئ الإيطالية حوالى منتصف الليل، بقينا على هذه الحالة فى عرض البحر بدون طعام أو ماء أو أغطية طوال الليل. لم يكن باستطاعتنا فعل أى شىء. وفى حوالى الخامسة صباحا مع طلوع الشمس شاهدنا مروحية تتقدم باتجاهنا ثم بدأت بالتحويم فوقنا ونحن نلوح ونصفر، الطائرة بدأت بتصويرنا من كل الاتجاهات ثم ذهبت إلى الأفق وغابت عن النظر، وجاءت لنا بالنجدة.
بعد وصولنا جاء أحد أفراد الطاقم وأخبرنا أن من يريد الذهاب إلى السويد أو الدنمارك يقف على اليمين ومن يريد الذهاب إلى بلجيكا أو هولندا أو ألمانيا أو لوكسمبورغ يقف على اليسار.
بالطبع أعداد السويد كانت أكبر من الآخرين. قال سوف نوصلكم إلى مدينة (آخن) الألمانية بأمان ومن هناك على مسئوليتكم تستطيعون أن تركبوا باصات إلى إقليم (ليمبورغ). كان هدفنا الوصول إلى مركز الهجرة واللجوء، قال لنا نستطيع إيصالكم إلى (كوبنهاكن) فى الدنمارك ولا نستطيع عبور الجسر إلى (مالمو) فى السويد.
وبعد حوالى الساعة فقط توقف الباص فى نقطة ميناء بحرى وسألت السائق فأخبرنى أننا وصلنا (ميسينا)، ويجب أن نعبر إلى القسم الشمالى من إيطاليا المفصول تماما عن الجنوبى بالبحر، ويا سبحان الله تفاجأنا بشكل كبير.
كان من بيننا أستاذ جامعى يملك الكثير من المعرفة لم يدر أن إيطاليا عبارة عن جزيرتين، ولم يكن يعرف أن

fb/mashro3pdf

مخطط الرحلة للسفر لشمال إيطاليا ومنها نعبر سويسرا وألمانيا للدنمارك فحمدت الله أن كونستانس حبيبتى كان ترسل لى الخرائط ونمت لأول مرة منذ أيام طويلة.
وبعد ساعات طويلة تبدل السائقون وذهب الأول للنوم، ولاحظت أن الطريق قد تغير فأخبرنى السائق أن هناك تشديدا فى سويسرا وبالتالى جاءتهم الأوامر للسفر عبر النمسا وبدأت رحلة طويلة من التأمل بالطريق ومراجعة الذكريات والأحداث، وأخرجت ورقة وقلما وبدأت أكتب الأحداث والتفاصيل المهمة قبل أن أنساها.
تابعنا باتجاه الشمال الشرقى حتى وصلنا لمدينة (فيرونا) الإيطالية وأخبرونا أنها آخر مدينة إيطالية قبل العبور للنمسا. وقبل نصف ساعة من العبور أخبرنا السائق وطلب إغلاق الستائر وازداد التوتر وبقينا بانتظار نقطة الحدود، ولكن للمفاجأة لم يكن هناك حدود فقط ضريبة عبور.
وتابعنا بالأراضى النمساوية لنجد أنفسنا فى وسط مدينة ميونخ وكأننا بحلم ليس حقيقة هكذا بكل بساطة تعبر ثلاث دول بدون أن ترى سيارة شرطة واحدة، فشعرنا بالسعادة الغامرة وتابعنا سيرنا بدون توقف.
فى الطريق بين ميونخ وبرلين ونحن مندهشون بجمال الريف الألمانى والطرق السريعة وأناقة وحضارة القيادة على الطرقات، فجأة أصيب أستاذنا الجامعى بأعراض تسمم وإسهال وقىء ولم يكن هناك حل سوى التوقف كان من أهل الأرياف قليل العلم بالقوانين وكان من الصعب إقناعه بخطورة الموقف، فجأة بدأ يطالب بالتوقف بدون أى تفكير فى العواقب.

fb/mashro3pdf

فسمح له بالتوقف على مسئوليتنا فى استراحة ومحطة وقود بين ميونخ وبرلين ويا ليتنا ما توقفنا. اكتشفوا أننا أجانب، لا، بل غرباء عن المجتمع المحيط، ونصحنى السائق أن أتركه ولا أصعد إلى الباص ثانية معه وأن أتابع طريقى وحدى. لكنه كان مريضا جدا ويستند إلى ذراعى منهكا ويبكى، خفت أن يقتله الخوف والغربة وليس الإعياء فبقيت معه ومع المجموعة.
عدنا للمسير سعداء غير مدركين لتصرفنا الغبى، وأنا بدأت بترتيب قصة فى خيالى والتفكير مليا، وبعد حوالى ساعة ظهرت سيارة شرطة أمامنا وخلفنا وعلى الجانب والأضواء حولنا، وتوقف الباص بعد الخروج من الطريق السريع، ونزلنا على الطريق وأخذوا السائق للاستجواب بعيدا عنا، وجلسنا على الأرض وهم مستنفرون وعصبيون بشكل مخيف، ورفضوا السماح لنا بشرب الماء وهناك طلبوا أوراقنا وقلنا ليس معنا شىء فحذرنا المفاوض أن من يظهر أوراقه ويعطى بصمته سوف يطلق سراحه كلاجئ، وإلا سوف يستخدمون العنف. عرفت أن الألمان لا يمزحون أبدا فتقدمت وأظهرت صور الجوازات المختومة بختم مزور. لم يكن تحقيقا بل فقط للتأكد أننا لاجئون ولسنا خطرا على أمن البلاد ثم أخذوا بصمة إبهامى الأيسر على حبر وورق. أما بالنسبة للبقية الذين أنكروا أى أوراق ورفضوا البصمة، فأشعر بالحزن أن أخبركم، ومنهم أستاذنا الريفى الجامعى المريض، للأسف تم استدعاؤهم شخص تلو الآخر وتعريتهم بشكل كامل وتفتيش شخصى وجسدى لاكتشاف أى أوراق مخفية تمت تعريتهم بشكل مهين. بعض

fb/mashro3pdf

الأشخاص قرروا اللجوء فى ألمانيا والبعض ذهب لمحطة القطار...
وهنا تركت المجموعة وبدأت السفر وحدى أنا والأستاذ حمدى الأستاذ الجامعى، أستاذ كلية الهندسة الهارب مثلى الفار بأحلامه وإن كان متأخرا بعض السنوات كما يقول عن نفسه.
صعدنا القطار بسلام ونام مَن حولى، وبقيت مستيقظا أشاهد عتمة الليل. وعبرنا الجسور الدنماركية الشهيرة، ورغم كل الأحداث والمشاكل التى مررنا بها كنت سعيدا بالوصول إلى كوبنهاجن.
الرحلة كانت متعبة جدا ورأينا الموت وذقنا العذاب، ولكن عندما قامت موظفة اللجوء السويدية بتطميننا أدركت أننا فعلنا الصواب وأن الرحلة ستبقى ذكريات فقط إن شاء الله. وادعوا لنا بعدم الترحيل لألمانيا.
رغم كل ما رأيت أود أن أشكر عبد الحميد الراعى، هو من عرفنى بالسمسار.
سلامى لكم جميعا وقبلاتى ليد ورأس أبى.
ابنكم وصديقكم شاكر".

انتهى الشباب من تقليب الخطاب وقراءته عدة مرات، كانت الدموع فى أعينهم والحنين لشاكر ونكاته مصدر ألم، لكنهم سعداء من أجله فرحين بنجاته يراود كل منهم الحلم أن يكون مثله.
كان أبوه بينهم يبكى وحدته وحاجته لشاكر ولوعة فراقه، وتركزت أطراف الأعين حول عبد الحميد تتساءل:
هل كان يدرك أنه يخاطر بحياة شاكر ويدفعه نحو المجهول؟

fb/mashro3pdf

أشرا أراد به؟ أم خيرا أراد له؟
هل عبد الحميد الراعى من دفع بشاكر نحو الحافة ممتطيا أحلامه الزجاجية؟
وهل شاكر لم يكن يعى المخاطرة وقد قبلها وهو فى الأخير رجل ناضج يدرك أفعاله؟
تهرب عبد الحميد من الأعين وقام إلى بيته تخرق ظهره نظرات الشك والتساؤل، كان مرتاحا لرحيل شاكر خائفا من عودته لكنه، لم يستسغ فكرة سعادة شاكر المحققة هناك وحلمه الذى وهبه له... ليته لم يفعل فقد كان عذاب شاكر هنا يُبقى شيئا ما مشتركا بينهما.

fb/mashro3pdf

(18)

فى ذلك الصباح تسللت وردة عائدة لبيت مدام ناهد... لقيها هانى على السلم

- سى هانى... قالتها وردة بارتباك.

نظر إليها هانى بسخرية تخفى غيرة فى قلبه.

- هل كنت فى بيت سى عبد الحميد الآن لتنظفيه؟!
- سى عبد الحميد عيان بالحمى...
- لن أبلغ أمى... لا أهتم إن مات وحملته النقالة أو حرقوه... ادخلى غرفة أمى واسحبى لى من دولابها ورقة أو ورقتين من فئة المئات ذات الأصفار والرائحة.

تتلفت وردة حولها وتنظر لباب عبد الحميد المغلق متحسسة مفتاحه فى رقبتها..

- حاضر يا سى هانى..

لا أدرى كيف؟ لكن أمى مدام ناهد تعتقد ذلك، إن كل ما لا تراه بعينيها أو تسمعه بأذنيها... لا يحدث لم يحدث...

كنت بغرفتى. عدت من المدرسة، وألقيت حقيبتى ولم ترانى أمى، كانت بحجرتها مع زوجها.. أحد أزواجها، يلهوان حين دخلت عليهما وردة فجأة من دون استئذان، وأفسدت لحظتهما، سمعتُ أمى تحرقها بالكبريت فى يدها وبالملعقة الساخنة فى جسدها، وسمعت وردة تصرخ، لم أتحرك من مكانى، كان صوت وردة يخترقنى، توسلاتها ما زالت تسكننى...

fb/mashro3pdf

تفاجأت أمى بوجودى أمامها، ولدهشتى أكملت ما كانت تفعل بوردة، أغلق زوجها باب غرفته، وأدار التليفزيون بصوت مرتفع حتى لا يسمع، ما لا يسمعه لن يكون مسئولا عنه، كنت فى غرفتى أرتعد.

فى المرات التالية، لم أعد أخرج من غرفتى أيضا، أصبحت أغلق الباب وأتلهى، تماما مثل زوجها، تعلمت منه طريقته، اخترت الصمت، ما لا تستطيع تغييره فلا تواجهه، ومن باب أولى لا تلم نفسك عليه.

فى إحدى تلك النوبات وبعد أن انتهت أمى من تأديب وردة، عادت لغرفتها تسترد ما قطعته مع زوجها، دفعها زوجها وخرج من البيت ولم يعد.

كنت أحب وردة قبل هذا اليوم، لكننى أصبحت أكرهها وأحتقرها، لم أتخاذل فى الدفاع عنها بعد أن كبرت، كل ما فى الأمر أن ذلك لم يكن ليغير شيئا، كنت سأنال حظى من الإهانة من أمى مثلها تماما.

كنت فى المرة الأولى لا أدرى... كنت أعتقد أن الجميع يفعلون ذلك، أمى على صواب دائما...

لن أجعل نفسى طرفا فى معركة خاسرة، مدام ناهد تقول لا شأن لك بما أفعله بالخادمات أضربهن أمزق لحمهن أسجنهن أياما فى الحمام، أنت لا شأن لك لا تخرج من غرفتك...

حين كنت صغيرا كان الخوف يأكلنى ويحاصرنى لمجرد رؤية مشهد فى فيلم أو مسلسل تظهر فيه طفلة تبكى، رغم إدراكى أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلا لكن الأفكار كانت تتداعى إلى داخلى، وبمجرد أن أغمض عينى للنوم تجتاحنى الكوابيس،

fb/mashro3pdf

كنت فى صراع محموم أبطاله تعاطف خجول مع طفل مهزوم لاحول له، وصوت عظيم هادر جهور غائب بطشه حارا مسموعا له صدى، كنت أقضى أول الليل مضطربا فى هذيان يتلوه نوم عميق لا أتقلب فيه.
بعد أن كبرت صار الأمر اعتياديا، كنت لا أخجل إن سمع صراخ وردة أحد أصدقائى وهرب من بيتنا أو أبلغ الجيران، كان الجميع يعرفون وصامتين...
ربما لأن وردة دائما تستحق ما تفعله أمى بها، ربتها رضيعة، كل ما تفعله وردة لها ردا لجميلها أن تتنكر لعطف أمى عليها، وردة كانت تسرقها وتكسر أطباق طاقمها الصينى المذهب، تفسد الستائر الحريرية الفارهة بالمكواة، وتضيع مقتنيات أمى ومصاغها، لو كانت لا تستحق عقابها لرحلت منذ زمن، لكنها تقبل من أمى ذلك لأنها تعلم أنها تستحق العقاب.
أتت وردة عبد الحميد بصينية طعام ممتلئة، أخفتها فى المطبخ حتى استطاعت أن تخرج له بها، كانت تريد أن تحكى له ما يحدث لها، ولكنه لم يكن يريد أن يسمع، كان يريد أن يعوض ما فاته فقط.
بعد سنوات من الرفض وقبل أن يُفصل من البنك وتلفظه راوية، أخذ من صاحب البيت عوضا عن إخلاء شقته، ومقابل إيجار شهرى سيبقى فى بيته عدة أشهر فقط، كان المبلغ ذو الستة أصفار مهره لراوية، التى لم تنتظر ولم تسأله ولم تعرف أنه كان ينوى أن يلقيه بين يديها.
هل كانت ستقبل به وتحبه؟ لا يعلم ولن يعلم.
لماذا تعجلت يا راوية الخلاص منى؟

fb/mashro3pdf

كنت سأصبح أميرك الذى يلبسك تاجا، أى تاج أملكه أنا الآن؟ ولمن أهبه بعدك يا راوية؟
رأت وردة حقيبة النقود وهى تنظف البيت، وجدتها أسفل كرسى أمه المذهب العتيق، الذى يثق أن أحدا لن يحركه أبدا. أخفاها فى صندوق قديم تعثرت فيه، تركت وردة النقود مكانها، لا هو سيحركها ولا هى ستكون قلقة بعد اليوم.
هدأت وردة وتركت تنظيف البيت وجلست تتأمل نفسها فى المرآة وتحلم بالسفر لمكان بعيد فى ذراع عبد الحميد، وربما وحدها إن رفض أن يرحل...
هل كانت تريد نقودا؟
لم تحتج شيئا من قبل ولم تحصل عليه.
فكرة الرحيل كانت تراودها لكنها لم تخطر ببالها كحقيقة، لم تواتها الجرأة أبدا، كان الخوف يقيدها دائما، لم تلح عليها قبل أن تملأ النقود عينيها، المال الفائض أمن وسكينة للنفس. نعم الآن يمكنها الرحيل مطمئنة.
كانت تفكر فى عبد الحميد وكيف تغيَّر، أصبح شخصا آخر منذ صاحب هانى، أصدقاء هانى كانوا يسخرون منه ومن صحبة هانى له، كانوا يتغامزون عليهما، التصق به وأصبح يرتدى ملابس الشباب التى لا تناسب جسده الكبير، كان جسده يضيق بموضات الشباب لكنه سعيد بتقدير هانى له، يغلق الباب عليهما بالساعات هو وأصدقاؤه لا تدرى ما يحدث بالداخل ولا تهتم شيئا فشيئا. أصبحت تخشاه.
لم يخبرها عبد الحميد أنه باع حقه فى بيت أمه، ولم تخبره وردة أنها تريد أن ترحل، لم تخبره أن هانى يضايقها كل ليلة،

fb/mashro3pdf

ويطالبها بحقه فيها مقابل صمته عن علاقتها بعبد الحميد، وأنه يسامر بها أصدقاءه وضيوفه حين يغيب عبد الحميد عن البيت ليلة وليلتين.
وحتى إن أخبرته ما كان ليحدث كلامها فى نفسه أثرا، فهو نفسه كان يطلب منها أن تسامر أصدقاء هانى ولو لبعض الوقت حتى يعود هو وهانى من مشوار لهما طرأ فجأة وبدون سابق ترتيب.
لم تخبره أن مدام ناهد تسأل عنه كل ليلة بإلحاح منذ رأته مع وردة خلف الباب، ولم يخبرها عبد الحميد أنه يلاقى مدام ناهد فى شقته الصغيرة الحقيرة البعيدة فى الحى الشعبى أول خط باص ١٠٢ التى لم يتركها ولا ينوى تركها، فقد كانت متنفسا له بعيدا عن عينى وردة التى تحاصره وتراقبه، من تظن نفسها؟ أمه أو خالته نعمات أو دادة حليمة!
شجارات عمال الورشة المستمرة دفعت عبد الحميد أول الأمر للتدخل ببنيته الضخمة والسيطرة على الشغب وإخافة بعض العمال وضبط آخرين، ثم أصبح هذا عمله الجديد الذى يتكسب منه، لم يختلف كثيرا عن عمله فى البنك، ربما هؤلاء العمال يثورون ويمزقون بعضهم لسبب أقوى وأكثر تبريرا..
سعت ناهد إليه بكل أنوثتها، لم تترك له مجالا للفرار، كان قبحه فى عينيها كمالا...
- لا أدرى كيف لم ألحظك قبل ذلك!
كانت تلك كلماتها له دائما... لم تعد تهتم أين تلقاه، ولا متى، لم تعد تريد شبانها المتأنقين ورجالها الذين تنفق عليهم..

fb/mashro3pdf

كان عبد الحميد يغلق بابه دونها، كانت ترسل وردة للسوق وتأتى إليه، كان إلحاحها وراءه لا يعرف الكلل ولا اليأس، ملأت ذات عبد الحميد الهشة برائحة الذكورة وغذت كبرياءه الجريحة، كانت ناهد صورة للهانم التقليدية فى زينتها وطلتها ورائحتها ولم يكن هو الصدِّيق يوسف فى تمنعه عنها، لم يصمد طويلا لحصارها له..

عبد الحميد الجديد الذى تبعته ناهد هانم حتى سقط فى بحرها، أو سقطت فى بئره، بجسده الضخم وثقته فى رجولته، وحبه للحياة مثلها فتنت به.

- أنا هنا معك يا عبده، فى هذا الحى المكتظ متلاحم البيوت والأجساد والأنفاس.. أنا لست ناهد هانم ولا مدام ناهد، أنا هنا ناهد المرأة التى تحب رجلها...

معك فى بيتك المتهالك المترب، بلا أثاث كالذى فى بيتى، ولا مرايا ولا أكسسوارات وأدوات تجميل، لكننى هنا فى جنتك يا عبده.. أنا امرأتك ناهد فقط..

آتى إلى هنا مستترة بالليل والملابس الشعبية، لا أريد أن يرانى أحد ولا أستطيع الدخول بعبد الحميد إلى بيتى، الحى كله يعرف علاقته بوردة خادمتى، ماذا ستفعل وردة لو علمت أنه معى الآن، ربما تجن وتخبر هانى وأهل الحى، لا أهتم بما ستفعل ما دام عبده يملأ حياتى، فقط لا أريد أن تعرف وردة، ماذا سأقول لها اذهبى ونظفى بيت رجلى ورجلك!

لا أتخيل كيف يحبها عبده، ربما يغمض عينيه ويتصور أنها ناهد حبيبته، رائحة الصابون فى يديها هل تملأ أنفه حين يلقانى بعطورى، يقول أنه لا يحب روائحى الباهظة ويحب رائحة

fb/mashro3pdf

الجسد الندية، اعتاد الخادمات. ربما محاولاتى ستثمر فى النهاية، لكنه يذهب إليها كل ليلة بالتأكيد، لو كان هجرها لاستشاطت كالقط المسعور تبحث وراءه، تأكل الغيرة قلبى، إنه يخفينى بداخله، يخفينى هنا، وردة لا يأتى بها إلى هنا، يلقاها فى بيته فى شقته فى الزمالك بيت أمه، لا يهتم إن علم أهل الحى بعلاقته بخادمة، لكنه يهتم إن عرفت وردة علاقته بى.

كان عبد الحميد يدير ورشة الخشب أسفل البيت، ويدبر حياته من جديد، لا تريد ناهد أن تعترف أن وردة هى صاحبة الفضل فى تغييره، وهى من صبغته بتلك الذكورة الطاغية وصاغته من جديد، وأنها هى من أيقظت روحه الخاملة واستدعتها، وهو لم يذكر وردة أمام سيدتها أبدا، تزوجها واكتفى بأنها تعلم أن وردة لا يجب أن تعلم عن علاقتها به شيئا.

- هل تحبنى يا عبده؟ سألته ناهد بدلال الأنثى.

كانت تنظر حولها، تتأمل نفسها وهى نائمة إلى جواره، فوق فرشة على الأرض ورائحة الزيت تفوح حولها، ملابسها الثمينة على الأرض الرطبة، وأصوات صبيان الورشة وصياحهم تصل إليها، ترى هل يسمعون فى الأسفل صوتها! لا فاصل بينها وبينهم سوى باب تكسره قدم طفل.

تمسك ذراع عبد الحميد...

- هل تصدق يا عبده أن غرفة عزبة الكونتر أحب إلى من بيتى؟ هل تصدقنى يا عبده؟

كان عبد الحميد غارقا فى أفكاره، متخما من عطاياها، لكنه لن يستحى من طردها إن زادت فى الإلحاح عليه، واستنطاقه بما لا يريد أن يقول...

fb/mashro3pdf

بلهجة مفرطة الخشونة أجابها ساحبا ذراعه من يدها:

- لم تكن مسألة الحب والعشق تلك فى الحسبان من البداية...

بنظرة لا حياة فيها أسكتتها كلماته..

- كما أنك انتصرت على وردة، وهذا ما كنت تريدين.. لتبقَ الأمور عند هذا الحد.

ابتعد عنها صامتا وارتدى ملابسه.. وخرج على عجل وتركها فى الغرفة وحدها.

بدت رائحة الغرفة أكثر نفاذا وحدَّة، لم تكن ناهد تنظر حولها حين تصل الغرفة كان دائما كل همها عبد الحميد.

fb/mashro3pdf

(19)
كانت وردة تسحب من حقيبة النقود القليل ما لا يمكنه ملاحظته، ولما دخل عليها وهى تجر الحقيبة لتخفيها أسفل الكرسى، فتش ملابسها وجسدها، وأخرج النقود، ثم انهال عليها ضربا ولطما بكلتا يديه وركبتيه، سقطت وردة أرضا وسقط فوقها يكمل تمزيقها، كانت كقط مصروع تنكمش خلاياها وأعضاؤها مع كل ضربة بدلا من الصراخ، ازرقَّ وجهها وجسدها وهو لم يتوقف...
ذهبت سكرة الغضب ورقد إلى جوارها أرضا، متهالك خائر القوى يلهث..
سألها:
- لماذا فعلت ذلك؟
لماذا تكرهيننى؟ فلم تجب...
خرق طبلة أذنها اليمنى بالصفع ونزفت اليسرى وما زال يصرخ فيها، كان الوقت ليلا والجيران نائمين، لكنهم يسمعون صوته وحده فقط، لم تستغث ولم تفتح فمها إلا لإخراج الدماء المتجمعة فيه، كانت كأمه أمام أبيه، منكمشة مستسلمة، حتى ينتهى منها.
لم يجرؤ أحد من الجيران على قرع بابه، فقد أصبح مؤخرا مصدر شك وحيرة للجميع، يعلو صوته ليلا بلا سبب ويصرخ نهارا بلا سبب..
يوما بعد يوم كانت وردة تتعافى، لكنها تتجاهل النظر فى عينى عبد الحميد، وتتغافل عن النظر فى المرآة، كان ينظر إليها وهى تحاول الرجوع إلى طبيعتها، تحاول أن تقف باستقامة

fb/mashro3pdf

وتمد ذراعها للأعلى لتنظف المطبخ، تجلس أمام الثلاجة منحنية الظهر، فلا تستطيع أحيانا أن تعاود الوقوف، كان خجلا منها لا يقربها ولا يعتذر لها.
أنا أكرر ما فعله أبى بأمى، لم أجد سوى وردة لأنتقم منها، مثلما كان أبى لا يجد سوى أمى لينفث فيها غضبه وانتقامه.
لم تخبره وردة أنها لم تفكر فى الرحيل قبله، ولم يخبرها عبد الحميد أنه لا يحبها ولكنه لا يستطيع أن يحب غيرها...
كان يدفع لهانى وأصدقائه أجرا يوميا مقابل أن يطاردوا راوية وينتقموا له منها، كان يريد أن يراها تتعذب كل يوم، تتلفت حولها لترى صبية وشبابا يتحرشون بها فى الطريق، إلى أى مدى يفعلون، لا يهم. كان مطمئنا إلى أنه يدفع لهم الكثير، يدفع مقابل كل يوم ما يكفى لأن تندم راوية كثيرا.

لم يخبرها أن عبد الحميد الذى عرفته ورأته قد ذاب كالملح واختفى، وولد بعده آخر على يديها، لا يريدها أن تعرف هى بالذات من هو!
لم يخبرها أنه عاد للشيخ شارد مرات ومرات، وأنه ذهب للرجل وحده وعرف الطريق ولم تضلله الروائح بل أرشدته، وأنه طلب منه أن يكون العمل السفلى هذه المرة بوقف الحال لشاكر، وتسخير الجن لإيذاء أحمد حبيب راوية...
لم يخبرها أن راوية ترقد فى المستشفى، بعد أن طعنها شخص ما قبل أن يهرب بسكين حاد عدة طعنات فى ثديها وعورتها، ولم يخبرها أن النقود تتسرب من الحقيبة كما لو أن الفئران تأكلها ورقة ورقة وأنه لا يهتم.

fb/mashro3pdf

لو أخبرته أنها تريد الرحيل والنقود وكل شيء لأعطاها، كانت وردة حواء التى أحيت بداخله روح آدم ما كان ليبخل عليها بماله، وردة التى رأت روحه العارية قبل جسده، روحه المشوهة ذات الندوب والشروخ والكسور وقبلته، ربما لم تحبه لكنها قبلته كما هو، وإن كان لم يعشقها أيضا وليس فخورا بتلك الروح التى ولدت إنما كانت وجها له طالما تمناه وهبته له وردة.

لو أخبرته أن هانى يناوشها لحطم وجهه وعيَّره بأمه، لو أخبرته أنها تخضع لأصدقائه لحطم وجوههم وقطع عنهم ماله الذى يدفعه لهم كل ليلة، أو ربما لم يكن ليفعل شيئا من كل ذلك، تماما كما كانت تتوقع منه وردة... لا شيء.

لو أخبرته أنها تحب عبد الحميد الأول، الذى رقد بين ذراعيها كسيرا لربما أحبه هو أيضا وسامحه وتصالح معه وكف عن ملاحقته ليفنيه ويذيبه، أو ربما كما كانت تتوقع منه وردة. لم يكن ليفعل شيئا.. لا شيء.

كان يهرب إلى تلك الشقة بعيدا عنها أياما، هناك كان يلقى عبد الحميد الجديد الذى لا تعرفه وردة، عبد الحميد الذى يدير ورشة تعج بالحياة التى طالما أراد أن يكون جزءا منها.

هناك يحترمه الجميع ويخشون بطشه، لم يكلفه الأمر سوى كسر ذراع أحدهم وضرب آخر حتى يقترب من الموت، وقتها علم الآخرون أنه لا دية لواحد منهم إن قتله عبد الحميد بضربة يد، فاستقام الأمر له، وهدأ الشغب.

وتسارع إليه البعض لإرضائه بالإبلاغ عن الآخرين، يهابه قطيع يسخرهم للعمل من المشاغبين والمدمنين...

fb/mashro3pdf

أرباب العمل لا يريدون المتاعب يريدون الأمن والنظام وهو يعرف كيف يبسط الانصياع وسط هؤلاء المشاغبين.
أصبحت الساحة خلف الورشة مطعما شعبيا يديره لحساب نفسه، هو من وضع يده على المكان أولا، عمال الورشة يتناوبون تنظيفه وإبعاد مقلب القمامة عنه، أحاطه بسور حديدى وأغلق منافذه الخارجية ليصبح ملحقا بالورشة..
كان يقدم فيه الوجبات الساخنة، بل ويعصر فيه بقايا الفاكهة التى تلقى فى صناديق خشبية خلف الورشة.
شحتة... عرص آخر جديد، هكذا كان يقول عنه لنفسه، أول الأمر رأى فيه عبد الحميد أنه شاكر آخر، يجتمع حوله الصبية يلوحون بالأسلحة البيضاء ويخيفون المارة، مناوشات الليل عادة يبدأها الأقوى والأكثر عزوة وسندا، يتفاخر كل بأتباعه وسلاحه، فى كل ليلة كان لشحتة ضحية من الصبية أو المارة أو من الحيوانات الضالة، يمزق أحشاء كلب أو يعلق فئران مصلوبة فوق عمود خشبى مغروز بخاصرة الطريق...
أهل الحى فى كل ليلة يدعون الله ألا تكون ضحية شحتة ورفاقه التالية أحد أولادهم أو حيواناتهم السائبة فى الطريق.
سهل شحتة على عبد الحميد مهمته، ما كان عليه فى المقابل سوى إسباغ بعض الكرم عليه والإقرار بسلطته، ما كان بحاجة لمزيد من البطش كان ينقصه فقط تأييد عبد الحميد وإظهار بعض الاحترام لهيبته. وكان السحر ما حصد لقاء ذلك.
أصبح شحتة ذراع عبد الحميد وعينه ودماغه إن لزم الأمر، كانت صِلاته داخل العزبة وخارجها تدهش عبد الحميد، ما جعله يمنحه المزيد، أعطاه أثمن مما أراد: صادقه، ورافقه فى

fb/mashro3pdf

جولاته بين العزب وأوكار المردة، وفى المقابل غض عبد الحميد الطرف عن جلسات المزاج العلنى والتعاطى فى حوش الورشة.
استجاب العمال لسطوة شحتة، ربما من وقت لآخر كان يضطر لافتعال أزمة وشجار وتأديب أحد ما لينضبط الآخرون، اشترى ماكينة ضخ مياه لإطفاء الحرائق بخرطومها الذى تندفع منه المياه كالشلال، كان يؤدب صبيانه يفتح محبس الماء فتندفع المياه فى وجوههم كالسياط الحارقة، الماء أقوى من الرصاص يطفئ كل شىء.
ساعدوه فى التنظيف والطهو وبيع فائض وجباتهم للعمال خارج الورشة بأسعار زهيدة، ثم أدرك صاحب الورشة ما يحدث فأصبح يقاسمهم. نفايات الورشة أخرجها للطريق خارج السور، واحتفظ بأسفل سلم البيت مكانا خاليا، أصلح درجات السلم وأضاءه بأضعاف ما يحتاج.. لطخ مدخل البيت المتهالك بكل ألوان الدهانات الممكنة ليبدو مرمما، نزع أعشاش العِرَس والفئران، وأنفق الكثير ليبدو المدخل أقرب لمداخل المصانع المجاورة.
فوق سجادة حمراء فرشت خلف السلم وضع مكتبا جديدا، وكرسيا كالذى كان يجلس عليه فى مدخل البنك خلف البوابة.
ودعته الحاجة لغلق مدخل البيت ببوابة حديدية جرارة، كلّفت صاحب الورشة الكثير لكنه أقنعه بلزومها واحتياجهم للأمن بعد التجديدات التى ينوى القيام بها.
فى وردية ليلية قُطعت يد أحد صبيان الورشة أسفل المنشار الكهربائى، يد الأخ الأصغر لشحتة مزقها المنشار، الصبيان

fb/mashro3pdf

أيقظوا عبد الحميد بالصراخ عادوا أطفالا، قام فزعا وسط هلع الشباب وصياحهم يجرى بالصبى واليد المقطوعة من مستشفى لآخر، كانت اليد تقطر دما حارا ساخنا، وعبد الحميد يبكى ويحتضن الصبى، تركه فى رعاية مستشفى حكومى قريب وحوله أهله..

عاد منهكا للورشة ليجد آثار الدماء ما زالت فى المنشار الكهربائى، لم يجرؤ أحد على تشغيله ولا تنظيفه، فانهال على العمال ضربا وتأديبا، لم ينم حتى عاد العمل لطبيعته، وأجبر عبد الحميد صاحب الورشة على صرف تعويض مناسب للصبى مقابل يده وقطع رزقه بضعة آلاف من الجنيهات دفعة واحدة...

ما كان أهل شحتة يحلمون بمبلغ كهذا فى أيديهم، دفعه إليهم وأصر أن يأخذ أخاه الأصغر للعمل فى الورشة، وبيومية أعلى إكراما لذويه، قَبَّل الأب يديه وتراضى.

صمت شحتة وأدار وجهه عن أخيه، فما كانت يده لتساوى عنده ولا عند أبيه أكثر مما أخذ، وماذا يفعل عبد الحميد أو صاحب الورشة له، ففى نهاية الأمر هو خطؤه لولا تعاطيه واستنشاقه ما يدوّر عقله لانتبه للآلة ولعمله وخطورته...

هكذا قال عبد الحميد لأخى شحتة الأصغر الذى سيلحقه بالعمل بينهم، ناصحا مرشدا له... وأمّن الأب برأسه ودمعة حارة تجتمع فى مقلتيه.

fb/mashro3pdf

(20)

كانتا تتشاجران.. كانت ناهد تلقى بملابس وردة على السلم، كانت تمزقها قطعة قطعة، الأحذية وزجاجات العطر كانت تلقيها وتكسرها على الأرض، كانت ناهد تسب وردة وتدفعها خارج البيت، تتشبث وردة بالباب وتدفع جسدها داخله، ناهد بدت كالوحش الهائج مشعثة يتطاير الشر من عينيها، بدت عجوزا تملّك الغل من عروقها النافرة، كانت تضرب وردة، تمزق شعرها بيديها، تدفعها على السلم، تضربها على وجهها، على جهة واحدة من وجهها، كما كانت تفعل دوما تختار لكفها خدا واحدا يتلقى لطمات متتالية حارقة، وربما بحذائها ذى الكعب. لا تهم الأداة.

كانت وردة تصرخ، كنت أسمعها من خلف الباب، كانت تستغيث بهانى، لم تستغث بى!

لماذا يا وردة.. أنا ضئيل فى عينيك على ضخامة جسدى؟!

لوهلة خيل إلىّ أن وردة تدفع بناهد للخلف، تدافع عن نفسها، تشد ملابسها من يدى ناهد، وتخمش يدها بأظافرها، ورأيت فزعا فى عينى ناهد وهى تنظر ليدها المخموشة.

فُتح باب البيت وخرج صديق هانى مسرعا على السلم، رأيته من خلف شراعة بابى، فتحت الباب، كان هانى يجرى خلف صاحبه، وجهه مكفهر وشعره مشعث وغاضب، كان الشيطان فى وجهه، أفسدت أمه وقته مع صاحبه...

أشعر بضربات قلبه وهو يقف فوق السلم يستجدى صاحبه البقاء والتمهل...

fb/mashro3pdf

- ستصمت أمى فور أن تنتهى من تأديب خادمتها.. دائما تفعلان هذا وتصالحها أمى بعدها بفستان جديد أو قطعة أكسسوار.. لا تخف يا شادى.. لا ترحل.

أفلت شادى ذراعه من يد هانى بعصبية وانطلق هاربا، ارتطم بى، تركته يمر، نظر إلىَّ هانى والشر يطير فوق رأسه:

- ادخل بيتك...

كان هانى ينظر إلى باحتقار وشر لم أره فى عينيه من قبل. هانى كأمه لا صديق له سوى رغبته. وأنا مثلك يا وردة مقهور وصغير وضئيل، وإن تغيرت فما زال عبد الحميد الأول يرقد بداخلى...

استدار هانى داخلا بيته، ولم يغلق الباب كانت وردة أكثر فزعا عندما رأت هانى، أفسدت عليه يومه هو أيضا، اقترب من وردة بغل لم تره فى عينيه قبلا.

- سامحنى يا سى هانى... أنا كنت أظنك وحدك فى الغرفة وأستنجد بك.

ضربها هانى بحزامه الجلدى، كان فى يده كسوط لهب ساخن يغلى، جلدات متتابعة على ظهرها فوق ظهرها فقط، وعبد الحميد خلف الباب يراقبه، يمسك بمفصل الباب يستند عليه، لا تقوى قدماه على حمله، بوله بين ساقيه ودموعه تغطى وجهه.

التفت هانى والحزام فى يديه نحو الباب ورأى عبد الحميد، كان وجهه لرجل آخر، تراجع عن وردة وتركها بين يدى عبد الحميد، والتفت لأمه:

- انتِ شيطان.. نظر هانى لأمه.

fb/mashro3pdf

- أنا شيطان يا حيوان يا صايع يا منحرف! أنا شيطان على نفسى فقط أما أنت فشرك لكل من حولك.

دفعها هانى عن طريقه، أمسكت ناهد بذراعه تحاول تقييده، رفع يده باتجاه النافذة فتحها ليلقى بنفسه منها، أمسكت به ناهد دفعها على الأرض. أمسكت ورده بقدمه ركلها فى وجهها وصدرها وبطنها، صرخت وردة..

انتفض عبد الحميد.. الآن أدركتُ حقيقتى.. خلقتُ من أجل وردة.. كان علىَّ أن أحمى وردة من البداية.. خذلتها من يوم خُلقت...

قفز عبد الحميد فوق ظهر هانى ليبتعد عنها، سقط هانى من النافذة.. كانت أمه تصرخ وتضرب عبد الحميد فى وجهه، دفعها من النافذة هى أيضا لتسقط إلى جوار ابنها.

تهاوى على الأرض يحيطه صراخ وردة، تولول وتنادى الجيران، تضربه على وجهه بكفيها وحذائها، ينظر إليها بعينين نصف مغلقتين، ووجه مستريح، وكأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهله.

تنبسط قسمات وجهه وتنفرج شفتاه عن ابتسامة، تتباطأ أنفاسه، ينتظر فى محله لا يتحرك، يسمع أصوات سيارات الشرطة من بعيد، تنشغل وردة عنه بالحكى للجيران، صوتها يصل بالكاد إلى أذنيه كأنه قادم من حفرة عميقة:

- العرص قتل أمى ناهد.. وقتل أخى هانى.

الجيران يولولون ويصرخون، يرى وجهه فى مرايا بيت مدام ناهد التى تملأ أركان وأعمدة المكان، لا يعرف من يرى، عرق

fb/mashro3pdf

بارد ينبت من خلايا جسده، يجف ما إن يلفحه تيار هواء من النافذة خلفه، عرق لم يعرفه قبلا، عرق شفاء.
وقف عبد الحميد أمام القاضى معترفا بما فعل:
- نعم فعلت، قتلتهما، أنا لست ضئيلا، كنت أدافع عن وردة، تأخرت فى الدفاع عنها...
بعد أن ألقيت بناهد نظرت من النافذة، كانت جثتها ترقد فوق جثة هانى، كانت جاثمة على صدره حتى بعد الموت..
وتذكرت أختى سعاد هل كانت تملك أجنحة ملائكة حقا! بالتاكيد فما كان الله ليجمع بين سعاد وهانى وأمه فى سقطة واحدة، الله العادل منحنا اختيارا عادلا لكننا لا نختار، فيختار لنا غيرنا ثم نلومه ونلوم الأقدار.
كانت وردة بين الحضور ترتدى السواد، ترتدى فستان الدانتيل الأسود المخملى فستان سيدتها، وحذاءها وأكسسوارها، كانت وردة تبكى سيدتها ناهد وأخاها هانى، كانت بين شهود النيابة تروى ما حدث، وكنت أنا خلف القضبان أبكى مبللا بنطالى، لم أنظر إليها ولم تنظر إلى، كنت شخصا آخر وكانت امرأة أخرى.. يزداد وجهها امتقاعا، عالقة بعينيها نظرة تشفٍّ وتعالٍ، لا أريد أن يفسد الحقد خضوع روحها كان هذا أجمل ما فيها، أنقى ما فيها، خاضعة أمام الأيام، ربما لم تكن يوما تختلف، مثلها مثل راوية، وربما لم تكن أبدا خاضعة..
كان لتحرير وردة ثمن باهظ يجب أن يدفعه أحد ما، هل فعلتُ ذلك من أجلها حقا؟ أم من أجل نفسى؟! لم أنتظر منها عرفانا، لن أفسد عليها حقدها علىّ بنظرة لا معنى لها ولا جدوى منها.. أى مرارة فى جوفى أكتوى بها كلما تذكرتك يا وردة.. لا بأس

fb/mashro3pdf

فقد تركتك آمنة حرة، أى حياة تلك التى كنت أعيشها وأنا مثقل بذنبك! مدين أنا بما عرفته معك، أنا ما وهبتك إلا حزنا، أنتِ بلا أجنحة، أنت لست كسعاد.

"حكمت المحكمة حضوريا على المتهم عبد الحميد محمد الراعى بالإعدام شنقا".

خرجت كلمات القاضى من فمه واصطدمت بأذنى، اخترق الصوت كل خلايا جسدى، اعتصرته فخرج مشبعا بزفراتها ويأسها، استندت إلى الجدار لأمنع نفسى من السقوط، لم أستطع..

تركت جسدى يتهاوى على الأرض، كان ذهنى خاويا متيبسا، وقلبى لا ينبض ولسانى معقودا، ملتصقا بحلقى... صحتُ بقوة كالمحموم: لا... لا.

أمسك بى الحراس ورفعونى، كنت أسير متعثرا فى خطواتى، يتملكنى الذهول، وتدوى كلمات القاضى فى أذنى، كنت قبل لحظات مثل من حولى أستنشق الهواء، وقلبى كان مثل قلبهم، ينبض... أما الأن فأنا محكوم علىّ بالإعدام.

ضُرب بينى وبينهم بجدار فاصل، أنا ميت من الآن، أسير بينهم كالأموات، وينظرون إلىّ نظرتهم لشبح..

كل الألوان حولى تبدلت للون الأبيض لون الموت لون الأكفان، رائحة التراب الساخن المعفر فى المقابر تملأ حلقى من الآن، ينظرون إلىّ وأنا لا أراهم كأنهم هم الأشباح، كل من حولى لا وجود له، كل ما حولى لا كتلة ولا لون له..

fb/mashro3pdf

كم من أناس ماتوا وكانوا يعدون أنفسهم للحياة، وكم من شباب وأطفال فقدوا فرصتهم فى الحياة لأسباب أقل مما صنع القدر معى، كم ممن حولى سيسبقنى إلى عالم الموت وهو لا يعلم.
نقلتنى العربة السوداء إلى السجن، كتلة ضخمة من القضبان الحديدية المتقاطعة تحاصرنى، نافذة وحيدة فى عربة مصفحة.. قذرة الرائحة.. ساخنة..
كانت رائحة الموت تعبئها، وأنا مثلها احتل الموت بواطنى، منذ سمعت الحكم وربما من قبل ذلك.
السجان يوقظنى، صليل مفاتيحه التى يحملها بين يديه دائما يذكرنى أين أنا، لم أكن بحاجة لصوته الجهورى ولا لهزاته العنيفة لأستيقظ، كنت أنتفض لأجد نفسى فوق سريرى الحديدى أحتضن الحائط..
كل يوم يمر أخطو نحو الموت بحبل ملتف حول رقبتى، كان قبل السجن مرتخيا حتى نسيته، يجذبنى نحو عالم الحقيقة، عالم ستنكشف عنى فيه غشاوتى، وأى غشاوة تبقت لأكتشفها، كنت أحكى حكايتى لعم أحمد السجان.. فيقول لى:
- مت شنقا سريعا لتستريح..
كل يوم يمر علىَّ داخل السجن، يذكُرنى ويُذكرنى، كل يوم يمر أرى نفسى فيه قاتلا وعرصا ومهزوما.
فور وصولى ضوعفت الحراسة والاحتياطات حولى:
- مم يخافون يا عم أحمد؟
يواسينى سجَّانى الصعيدى الهرم الشاويش أحمد بصوته من خلف الباب الحديدى المغلق بيننا:

fb/mashro3pdf

- وما يهمك من أمرهم يا ولدى... هى أيامك تقضيها حتى ترتاح.

حتى الطعام يأتينى بلا ملعقة ولا شوكة. وأتت البدلة الحمراء لتتوج رغبتى فى الرحيل سريعا، كان الجميع ينظرون إلى وكأنهم لا يروننى منذ الآن، وقد كنت بالفعل لا وجود لى، هم مسئولون عن بقائى حيا وتحسين ظروف معيشتى حتى انقضاء مهلة لا أعلمها ولا يعلمونها هم، حتى يوم تنفيذ الحكم.

الطعام أصبح ساخنا وليّنا ويمكننى التعرف عليه، المسكنات متاحة متى طلبتها، الماء نظيف مقارنة بما سبق، زنزانتى لفرد واحد بها سرير واحد، أصبحت أمتلك حيزا لم أكن أقدره حتى حرمت منه، كل هذا البراح يصنعه الفراغ، لأول مرة فى حياتى لا أشعر أننى ضخم يضيق بى كل ما حولى...

سمح لى بجولة يومية فى الشمس، مكبل نعم لكن عينىّ حرتان، تتجولان وتنظران نحو السماء ونحو الأفق.

هل يمنح الفراغُ إحساسا بالسكينة، الفراغ حولى يتسلل داخلى، وددت لو كان جسدى معلقا فى ذرات الهواء خفيفا:

- هل سأذهب إلى الجحيم.. إلى النار.. إلى جهنم؟؟

كان سؤالى للشيخ الذى يرسلونه إلىّ ليحدثنى عن الله، عن التوبة، وعن طلب العفو والرحمة.

كان يسير معى درب الألم خطوة خطوة، للخوف وتبكيت الضمير رائحة يعشقها القدر لم تتسلل إلى قلبى بعد. دم أبى القاسى يجرى فى عروقى، لم أرتكب إثما لم يفعله.. وكأن السنوات لا تمضى! وكأن رحيله عنى كان بالأمس.

fb/mashro3pdf

حكيت للشيخ ما فعلت، وطلبت منه إخراج الشيطان الكامن فى جسدى وعقلى، الذى أملى علىَّ رغباته القاتلة، ودفعنى لفعل ما فعلت، والذى أوقن بداخلى أنه لن يبارحنى إلا مع تنفيذ حكم الإعدام.. ولد معى وعانقنى، علق بى وبروحى، كنت أظن أن الاعتراف بالإثم يخلصنى، لكنه زاد من حريق روحى...
أدركت وأنا فى السابعة أننى ولدت منفيا، لا أب ولا أمن ولا حلم، الروائح والأصوات والبشر حولى لكنها لا تخصنى، الأيام وأمى وسعاد ودادة حليمة وألعابى، سأكون حرا بلا ذكريات عنهم، أحمال ثقيلة كالصخور فى رأسى، الذكريات مصدر الألم، كان بوسعها أن تنتقى ألف شخص غيرى تملأهم، تحررت منها، ما إن خلعتها عن نفسى حتى استرحت، بلا التزام تجاه شىء ولا تجاه أحد. كنت حرا، أنا ليس لى أى شىء هنا، حتى أنا لست لى.

- هل ينتظرنى بعد الموت سجن أشد وطأة وأكثر دواما؟

كانت أمى تقول أن من يخاف كثيرا يصبح رجلا نبيلا، هل خفت طوال عمرى بما يكفى لأن يكسونى اليوم النبل والشرف! وددت لو كنت فى عين وردة نبيلا...

- هل العذاب هنا سيخلصنى مما أنا فيه؟

إن تذكرت فعلتى وندمت هل سأنظر خلفى لأراها قد اختفت... هل هناك ستنتظرنى الكوابيس وضيق الصدر أيضا؟
سألت الشيخ. فصمت... وكان شيخا مهيبا قد تجاوز الستين، وقورا معمما، يرتدى لباس الشيوخ ولسانه كلسانهم، لا يكف عن النصح والاستشهاد والاسترسال، وقص حكايا السالفين وعبرهم...

fb/mashro3pdf

طلب من الحراسة التى تحميه ألا تجلس معنا، كان يستمع إلىّ ويبكى أحيانا، خفت عليه، ربما قتله سؤالى، فهززته.
يقول الشيخ:
- جراح الأذى تأخذ من الوقت وتطيب...
وأراها تأكله وتأكلنى.. وفى كل مرة تلقى ذاكرتى بتفاصيل كنت أظن أنها لا دخل لها بمآلى ونهايتى.
أنا أتذكر إهاناتى سرا وعلانية، وأتذكر استغلالى وإنكار وجودى، أنا أتذكر كل ليلة كنت أنام فيها طفلا مكسور الخاطر لأن الغول علِق بجسدى، وملابسى، وصوتى، ولسانى. كان يقول لى أننى أنا الغول وكنت أصدقه... وماذا إن لم أصدقه هل كان هذا ليحدث فرقا؟!
كنت ساذجا إلى حد كبير، أصدق كل ما يقال لى، كنت أصدق أننى حر، كان من حولى يملكوننى، يتحكمون فى مصيرى، حتى أولاد خالتى نعمات هم من قرروا أن أقضى العيد وحدى، ودادة حليمة هى من قررت أننى تعيس كأمى، وشاكر كان كل شىء حلمت به حتى بعد أن رحل، كان خوفه وقلقه وحلمه مثار غيرتى، هل كان يمكن أن أستولى على ذكريات وآمال شاكر!؟
كل الألوان تكذب إلا الأبيض والأحمر، الأبيض لون الكفن والأحمر لون الدماء التى ستلطخه، الأسود كاذب يخفى الشر، مثل عينى راوية، والأخضر مخادع يوهمك أنه سيستمر إلى الأبد ولا يلبث الخريف أن يمضى بأوراق الشجر، لا شىء يبقى... لا شىء حقيقى...
يقول الشيخ:
- من يقف بينك وبين الله يا ولدى؟

fb/mashro3pdf

أنت حزين يا ولدى، لم ترَ الفرح، لكن فرحا أصدق من هذا سوف يجىء..
وقام ممسكا بيدى يوضئنى، ويصلى وأصلى خلفه، أكرر ما يقول، كنت أبكى بين يديه كطفل ضال وجد أمه، وكان لدهشتى يبكى كأب وجد ابنه الضائع.
ربما وجد فىّ ضالته، وجد الضال المحكوم بالطرد من رحمة ربه، وجد "إبليسا" تائها تائبا عائدا بأثقاله وهزيمته.. لكننى لا أشعر بالندم.. هل يجب أن أشعر بالندم!؟
انتصر الشيخ فى معركته ووجد من يهديه، وجد قربانا يتقرب به إلى الله.
ووجدت أنا بين يديه ومعه سكينة المستسلم، وجدت معه سكينة من عرف وفاضت معرفته عن حاجته، وما حاجتى للمعرفة وقد انتهت معركتى؟
بين هذة الغرفة وغرفة الإعدام مسافة لا تتعدى مائة متر بحساب الأرقام، لكنها كانت طويلة جدا بحساب المشاعر والهواجس، تشاركنا معا فى هذه المسافة الطويلة القصيرة، كلانا تسارعت ضربات قلبه، وتغير لون وجه عم أحمد السجان رفيقى وجلادى، واضطربت مشيته وخطواته وإن كنت مثقلا بالأغلال وكان هو نظريا غير ذلك.
طلب منه الشيخ تغطية وجهى، أسنانى تصطك ولعابى يسيل على الأرض، حاولت تجنب النظر إليه فلم أفلح، كان يبكى فى صمت ويلاحقنى بنظراته.
لا أعلم إن كان ذلك حقيقة أم محض تهيؤات، ربما أردت أن يشفق علىّ هو بالذات، ويشعر بالأسى من أجلى هو بالذات،

fb/mashro3pdf

ربما يشعر الآن أنه حنث بوعده وعهده لله بأن يرشد خلقه إليه، ليهديهم سواء السبيل قبل فوات الأوان.
لم يكن مضطرا إلى البقاء معى حتى النهاية، لكنه شعر أن شيئا ما يلزمه بالبقاء، كان جلال الموت مهيمنا على قلبه طاغيا، الوجوم يجتاح الوجوه، والكلمات شحيحة فى الحلوق الجافة، والرغبة فى أن ننتهى تحف قلوب الجميع.. حتى أنا.
حذاء السجان يضرب الأرض بخطواته الثقيلة، كان عم أحمد يجر عبد الحميد، يحمله من إبطه ممسكا ذراعه إلى الخلف، يرفعه عن الأرض ويدفعه للأمام.
ينظر عبد الحميد بجثته العملاقة للخلف محاولا العودة، أقدامه لا تطأ الأرض، يجره السجان نحو الضوء فى نهاية الممر، يطول الممر...

- بضع خطوات أخرى وينتهى كل شىء. يتمتم عم أحمد بحياء.. شد حيلك يا عبد الحميد خلينا نخلص.. وتخلص.

عبد الحميد ينتحب، ذراعاه للخلف لا يملك مسح أنفه..

- خايف من الموت يا عم أحمد...

يرخى الشاويش أحمد قبضته عن معصم عبد الحميد قليلا، ويترك ذراعه الأخرى حرة وقد ارتعش تأثرا، يسقط عبد الحميد أرضا، يرفعه عم أحمد بعزمه حتى كاد يسقط فوقه من ثقل جسده الضخم.
يتمتم له بتوسل:

- خلينا نخلص يا عبده... الباشا مستنينا جوه.

fb/mashro3pdf

تدخل رأس عبد الحميد فى حبل خشن سميك، يلتف بيدى عم أحمد، معقود حول رقبة عبد الحميد بإحكام، يبكى عبد الحميد ويتبول ويختلط الدمع بالدماء من أنفه بالبول الحار المنسكب على الأرض فى الغرفة الضيقة.
الهواء راكد ينتظر روح عبد الحميد الثقيلة ليصعد بها...
يتساءل عبد الحميد:
هل بالغرفة ملائكة أم شياطين.. يسأل نفسه، من سيصحبه!
هل ستنبت لى أجنحة مثل سعاد؟! أم سأكون مع هانى وأمه؟!
يمسك عم أحمد بمقبض الكوة الأرضية، ويقول:

- اتشاهد يا عبده أحسن لك من البكاء. بصوت فظ جهورى يغير صوته سريعا، يقول عم أحمد ليسمعه من بالغرفة من رُتب عليا ورؤساء يتأففون ويتبادلون التحايا.
- قول الشهادة فى قلبك.. يا عبده يهمس له عم أحمد.

ويكمل فى أذنه:

- سلم لنا على الغاليين...

هل حقا سأرى "الغاليين"؟ هل ستكون أمى هناك؟ ماذا سأقول لها جاءك ولدك المارد؟ صدقت نبوءتك يا أمى؟
يتمتم الشيخ بالشهادة وأكررها خلفه، وأنا كخرقة بالية، لا أملك حقا لسانى ولا جسدى، مسلوبا كما كنت فى حياتى، أختلج وأصارع الموت ولا يأتينى من الشيخ ولا من الطبيب الجالس أى عون، كانوا يكتفون بالمراقبة والانتظار حتى ينتهى عم أحمد من عمله ومنى!
وكأن دمعى قد جف، وكأننى لم أبك من قبل أبدا...

fb/mashro3pdf

الضابط بصبر نافد ينظر للشاويش أحمد بسخرية مهددا ليسحب المقبض سريعا:

- عندما تستعد يا شاويش أبلغنى...

تتحرك يد عم أحمد بالمقبض فى حركة خاطفة مدربة، فتفتح حجرة فى الأرض أسفل عبد الحميد، يتدلى جسد عبد الحميد الضخم كدمية معلقة من أضعف نقطة فيها، من رأسها الضخم، وتميل رقبته التى كسرت، سمع كل من بالغرفة صوت كسرها. كان الحبل طويلا وسميكا ليناسب قياس جسد عبد الحميد الضخم، ورغم ذلك شعر الشاويش أحمد أن روحه لم تنزع فورا، وتأرجح جسده ينازع ليبقى، ترتعش أطرافه ارتعاشة أخيرة ترتخى بعدها للأبد، تحرك عم أحمد بفزع للخلف وقد غطى بول عبد الحميد الأرض تحت أقدامه، وبلل حذاء الضابط وحذاءه، لف الصمت الغرفة، حتى خرج صوت القلم يخدش الأوراق..

يخرج صوت الضابط جهوريا ويهبط صداه للحجره السفلية:

- المحكوم عبد الحميد الراعى رقم ٦٨٩٢ يسجل إلى جوار اسمه... قضى عقوبته، وكانت الإعدام شنقا...

صدى ارتطام الختم الأزرق بالمكتب الحديدى أسفل الأوراق أفزع طيور السقف الهائمة، هربت إلى نافذة السقف الوحيدة، ينسكب الحبر فوق الأوراق يشكل دائرة مغلقة ملطخة زرقاء، تمتد يد الضابط بالأوراق والقلم للطبيب الجالس:

- وقع الأوراق يا دكتور.

fb/mashro3pdf

كان الصمت عميقا لم يقطعه سوى صرير عودة المقبض لمحله، كان صريرا ثقيلا كئيبا ارتجفت له يد عم أحمد وطرفت له عيناه.

السجان: تمام يا افندم.

رائحة البول والدم والموت تملأ المكان، ينهى الضابط أوراقه وينظر للجثة بازدراء ويتمتم..

- بول حمار..

يبصق. ثم يتمتم: عرص.

fb/mashro3pdf